

عَمْرُو الْبَدَّالِيّ

رواية

كهنوت

النباش 2





رواية

كهنوت وتستمر اللعنة

النبَّاش 2

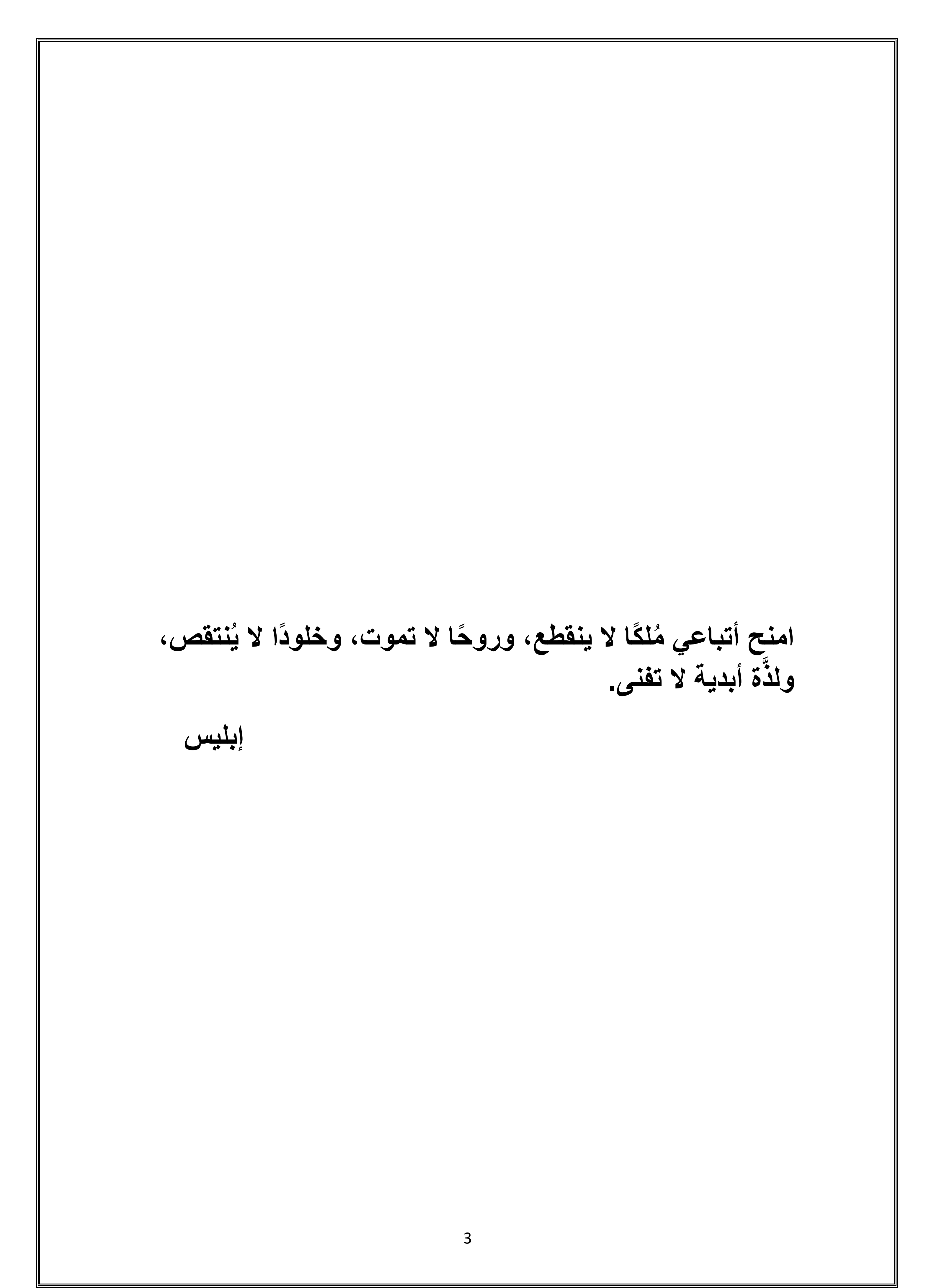
عمرو البدالي

دأب على زيارتي في الثالثة فجرًا، بينما أغط في نومٍ عميق، أشعرُ بأنفاسه تُلهب وجهي، افتح عيني مترددًا لأراه شاخص العينين لا ينطق، جسده بلون الرماد، اشتم رائحته وكأنه احترق لآلاف السنين.. امتزج الغضب والرهبة والخوف في عينيه الغائرتين في مزيج يخلع القلوب، علمتُ بأن تلك التعاويذ قد آتت أكُلها وأينعت قطوفها تحت يدي ولا رجعة.. ادركتُ ذلك وقدماي تخطو نحو الجحيم.. مؤمنًا بأن الطريق إلى الجنة يمر وسط الجحيم.. يومًا ما سنمر فوق صراط يعلو جهنم ونتذكر يوم لا تنفع الذكرى..إنه هو.. لطالما انتظرته.. انتابني زهو لا يُقارن.. لقد لبى نداءاتي.. من هذه اللحظة سيتغير كل شيء.. يمضي الوقت ثم يتبخر كالعدم.. ست وستون ليلة متواصلة من دون انقطاع لم ينطق ببنت شفة..

لم أقو على البوح لأحد.. بات مضجعي موطّنًا لهواجس تلتهم عقلي استسلم لها كل يوم من دون أدنى مقاومة في حضرته.. وفي الليلة الأخيرة رمقني بنظرة وداع فجائي بعدما آلفت وجوده هامسًا بأول وأخر ما نطق به بصوت متهدج وكأنه فحيح أفعى :

"الجحيم هو أنت.. فلتستمر اللعنة"

د.عمرو البدالي



امنح أتباعي مُلكًا لا ينقطع، وروحًا لا تموت، وخلودًا لا يُنتقص، ولذَّة أبدية لا تفنى.

إبليس

مقدمة

القُدَّاس الأسود

(تاريخ اليوم - القاهرة المنكوبة - كنيسة الشيطان)

غيوم اللعنة تُحلِّق في سماء العاصمة فوق رؤوس البغاة.. تنامت الخطايا والذنوب حتى اصبحت قنابل موقوتة توشك على الإنفجار.. دُقت أجراس القيامة بغتة.. ذُهل الناس.. وهُلعت الأفئدة.. لا فرق بين بكاء النساء والأطفال وبين نحيب الرجال.. يوم الحسرة الكبرى.

--أُغلق باب التوبة.. لقد ولى عهد الاستغفار.

تراهم مشدوهين.. يترقبون العذاب الأليم.. اجتمعت الحشود في كل مكان تتابع تلك الأهوال عن كثب وتتبعهم أذيال الخيبة والخسران.

--جاءنا الآن - أعزائي المشاهدين - نبأٌ عاجلٌ، أعلن السيد جنكيز خان امبراطور المغول الحرب على الدولة الخوارزمية، وتحرّك بجيوشه الجرَّارة إلى بلاد ما وراء النهر.. كما وصل إلى البلاد اليوم الملك مينا مُوحِّد القطرين على رأس موكبه الملكي بعد رحلةٍ استغرقت خمسة أشهر.. ننتقل الآن إلى بث مباشر لكلمة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب.

تداخلت الأزمنة في حاضر واحد، واكتظت الشوارع والميادين بشتى أصناف البشر ممن عاشوا عبر آلاف السنين على تلك الأرض أجمعين.. وكأنها أرض الحشر قد نُودى لقيامتهم الحين وها هم شاخصين.. جاء القدر في موكبٍ مهيب وصار العذاب نافذًا من دون رجعة.. حلقت الغربان في سمائهم تنتظر جيَّفهم المتعفنة وجبةً دسمة ولكن هيهات فالموت أصبح من تلك اللحظة أمنية مستحيلة.

شهور متتالية والناس لا يموتون.. حروب وصراعات ودماء تنزف والبشر محرومين من الموت.

المرء قد يفقد كل دمه، يُخلع قلبه من بين جسده ولا يموت.

بات الناس يتألمون بجراحهم من دون خروج الروح.. أحدهم قُطع رأسه في معركة على أبواب القاهرة بالسيف وظلت روحه عالقة تأبى الخروج.. أجساد هالكة من دون موت.

وكأن طاعون شره أصاب الجميع من دون تمييز.. امتلئت الوجوه بالبثور وذبلت العيون وخارت القوى عن أخرها.. ترى المرء يجرجر أمعائه المتشابكة خارج بطنه التي شقها أحدهم بحثًا عن الطعام.. وأخر يقطع فخذيه بسكين ليُطعم أولاده.. ورجال يخبطون رؤوسهم في الحوائط والجدران رغبةً في الموت المستحيل.. أحدهم شق صدره وانتزع قلبه بيديه مُقطعًا أوصاله بجنون هيستيري من دون أن ينال مراده.. الموت.

عجز رجال الدين والعلماء عن تفسير ما يحدث وخرست ألسنة الحكومات في شتى البقاع..

امتلئت سمائهم بالطائرات الحربية.. كل يوم يتكرر وكأن الزمن توقف وأصبحت الدنيا يوم واحد تجمع أحداثها الجسام في آن واحد.

الحرب العالمية الأولى والثانية ،حرب المماليك والأتراك، حملة نابليون بونابرت ،التتار، المغول، حروب قدماء المصريين مع جيرانهم، زمن فرعون ذو الأوتاد،

نكسة 67 وحرب 56.. ملوك ورؤساء تتصارع.. كل ما يخطر في بالك يحدث إلا الموت وإن قُطعت الرؤوس وحُرقت الأجساد وتحولت لأشلاء لا ينالونه أبدًا.. حُرّم عليهم وكأنهم في الجحيم.. خلودٌ أبدي في عذابٍ لا يُقارن.

هُدمَّت البيوت وساد الخراب وطالت اللعنة كل شيء.. اجتمعت الدول الكبرى لتتباحث تلك الأزمة محاولة البحث عن حلول من دون جدوى.. لم ينجحوا إلا في توفير بعض الملاجيء الآمنة لرجال حكوماتهم وعائلاتهم في شبكات الصرف الصحي القديمة تحت الأرض وبعض الغذاء والمؤن المهددة بالنفاذ.. توقف الناس عن العمل وساد الكساد ونَدُّر الطعام وأصبح المال لا قيمة له.. تصارعوا لفترة على المحال والمطاعم حتى خربت وتضوروا جوعًا وعطشًا.

شهور من العذاب مشردين في الدروب والشوارع.. البعض يأكل بعضه حيًا ولكن لا المأكول يموت ولا الآكل يشبع.. أبواب من الجحيم فُتحت على مصراعيها على بني البشر ولا غالق لها.. حاولوا الهجوم على ملاجيء الحكومة مرات ومرات فسرت شحنات عالية من الكهرباء في أجسادهم كادت تحرق بعضهم من دون موت.. احكمت السلطات أسيجة موصلة بمصادر كهرباء صاعقة تمنع أي غازي يفكر باختراق ملائجهم.

تراكمت الأزمنة من دون أنبياء.. بحث الناس عنهم كثيرًا من دون جدوى.. فاليوم لا نذير لهم ولا شفيع.. قد مضى عهد الرُسل ولا داعِ لوجودهم.. قد حق العذاب.. رسالة واضحة..

لقد أشاح الله وجهه عن الدنيا وما فيها غاضبًا.. هكذا قال العوام.

البعض يحكى بأن تلك اللعنة بسبب ساحر قديم تحالف مع الشيطان وتوارثت لعنته أجيالًا وأجيالًا.. وأن مُخلِّصهم من تلك اللعنة شخص ستحل روحه في أجساد كل الخطائين من قبله ليُصلح خطاياهم.. حينها سيعود كل شيء أدراجه وكأنه لم يكن.. إنهم يُقسمون أن تلك القصة صيغت روائيًا بعنوان "النبَّاش" للكاتب المصري ذي الاصول اليهودية "يعقوب ادريس" الذي لاقى عقوبة الإعدام قبل تلك الأحداث بقليل بتهمة التخابر مع إسرائيل لكن لم يعثر أحد على هذه الرواية بعد مصادرتها.

حتى مخازن الحكومة احترقت عن بكرة أبيها فلم يتأكد أحد من تلك القصة المزعومة.

يقولون أن ذلك المُخلِّص اسمه- يحيى عبد النور بركات -كما جاء في الرواية.. ولكن هذا الشاب عُثر عليه مذبوحًا في شقته يوم إعدام الروائي اليهودي وهو نفس اليوم الذي بدأ فيه كل شيء.. وكأن موت الاثنين كان إعلانًا لبدء الجحيم.

وفي صحراء القاهرة المنكوبة شُيِّد قصرًا فخمًا كالجنَّة وسط الدمار.. بين عشية وضحاها.. قصرٌ لم تمسسه الطائرات بقذائفها.. يعتقدون بأن له مجالًا جويًا يصعب اختراقه.. شاهقًا في سماءٍ تنذر بالأسوء في كل لحظة.. جُهِز بأحدث التقنيات.. وتلألأ بلونه الأسود وجوانبه الذهبية البراقة.. كان الأول من نوعه ثم تتابع أمثاله في العالم أجمع فلم تخلو مدينة منه بنفس الطراز.. ربما أصبح أكثر البقع أمانًا وملاذًا لراغبيه.. وظهر المالك الأوحد..

رجل شديد الغموض.. فريد مهران.. في الخمسين من عمره.. اشتعل الشيب في رأسه قبل موعده.. هادئ الطباع ويملك ابتسامة لا تفارق وجهه مهما يحدث.. لا يعرف أحد أصوله ولا كيف ظهر.. وحاولت الحكومة بتتبعه ولكن تتابع الأحداث وسوءها لم يسمح لهم بذلك.

كل ما يعلمونه عنه أنه صاحب ذلك القصر العظيم.. خرج يومًا يخاطبهم في حديثٍ مُصَوَر على أبواب قصره وتناقله الجميع كالنار في الهشيم:

--أعلم أنكم تعانون وتتمنون الموت.. هل لكم من مغيث؟

آن للبشر حينًا من الدهر يمرون على القبور ويحسدون أصحابها!

دعوني أخبركم الحقيقة من دون تزييف أو خداع..

لقد كان الإنسان دومًا يخلق آلهته بدلًا من أن تخلقه الآلهه..

منذ قديم الأزل تتحاملون وتلعنون الشيطان، أليس كذلك؟

تعتقدون أنه مصدر الشر الوحيد في العالم.. هو من يوسوس

لكم لتقتلون وتسرقون وتحرقون وتزنون وتمارسون الشذوذ

وكل ما هو إثم وإفّك وفساد.. بل وتدعون إلهكم المزعوم ليعصمكم منه..

والآن أين منقذكم ومغيثكم الذي لطالما دعوتموه لينجيكم؟

يترككم تتجرعون العذاب والهوان.. ضاربًا بآلامكم وأنينكم عرض الحائط..

في الحروب يبحث المرء عن حلفاء جدد.. أي كان عداوته السابقة..

اليوم تتغير التحالفات والمعتقدات تبعًا للمستجدات من العذاب..

يا معشر الإنس.. سأقولها لكم من دون خوف..

إنني رسول الشيطان إليكم وأمد لكم يد العون والنجاة نيابة عنه..

وبكل صدق وضمير أُعلنها لكم:

ظُلِّم الشيطان وما أجمله قد ملأت نفسه الرحمة والغفران.

قاومه الكثيرون في البداية ولعنه البعض وهاج وماج رجال الدولة والعلماء وانعقدت الجلسات المغلقة باحثين عن سبل لمواجهة ذلك الآفاك اللعين.

ومع استمرار العذاب خَفُتَت المعتقدات وذابت شموع الإيمان وبات الإنسان عاريًا من كل دين وملة.. فُتحت أبواب قصره للجموع الحاشدة.. موائد فيها كلّ ما لذَّ وطاب.. أمان بين أسواره المتباعدة على أرض تتجاوز الأربعين كيلو متر.

وتتابع الناس أفواجًا يدخلون في زمرة الشيطان من دون تفكير أو تردد.. بل وتشاحنوا بكل قوة على أبواب القصر المزدحمة ساحاته الداخلية بشدة فلا تجد مكانًا لقدم.

كنيسة الشيطان.. هكذا أُطلق عليها واعتاد الناس على وجودها بين مؤيد ومعارض وكأنه مقر حزب سياسي لمرشح ذي شعبية جارفة.. القلائل فقط هم من تحمَّلوا العذاب وابتعدوا طالبين من الله الرحمة والنجاة.. وفي المقابل لم يُطلب من رواد الكنيسة شيئًا يُذكر غير القسَم الإبليسي بدايةً.. صيغة يردُّدها المنضمين في حشد كبير بأصوات حماسية:

أقسّم بإبليس المُبجَّل أن أكون عبدًا مخلصًا.. وأن اتبع الطاغوت دينًا وحكمًا، وأصير من الساجدين.

الشيطان.. الطاغوت.. المُنتّظر

لم يتردد أحد في النطق بذلك من دون أن يفقهوا أو يسئلوا عما يقسّمون به بعد الشيطان..

فقط يدينون بالشكر والعرفان لمولاهم الشيطان مع ممارسة الشعائر اليومية التي علّمهم إياها فريد مهران وعمادها السجود للشيطان مرتان يوميًا مع قراءة بعض التعاويذ غير المفهومة وترتيلها ثم الإستمتاع بالأمان والطعام والعون وإرضاء الشهوات في حضرة إبليس.

وقف فريد مهران أمام مرآته في الدور العلوي وسط غرفته الواسعة ذات الجدران المطلية بالذهب.. ارتدى معطفه الأسود في زهو وغرور واضحين تراهما في عينيه الثاقبتين ممتزجين بشرود استثنائي يقاومه.. نظر إلى كلبه الأسود الصامت في جواره وابتسم مربتًا على رأسه:

--لا تقلق يا عزيزي فالحفل لم يبدأ بعد.

اعلن مهران عن ذلك الحفل منذ فترة كأول مرة بعد شهور من النعيم بين جنبات قصره.. حفل سيُنقَل مباشرةً عبر شبكة الانترنت التي عادت للعمل بكفاءةٍ عالية منذ إنشاء قصره المُطابق لمائة قصر ظهروا بعده في العالم أجمع.. كنائس الشيطان اصحبت الأكثر دفئًا ونعيمًا في العالم المشرد المحروم من الموت.

لقبه الناس بالكاهن الأعظم وتبعه كل كهنة الكنائس الأخرى بل أن الحشود تتابع الحفل في كل مكان في العالم عن كثب.

مد يده ليتناول ذلك الكتاب الآثري الصفراء أوراقه.. مسح بيده بعض الأتربة على غلافه ليظهر عنوانه جليًا.. الطاغوت "دين الشيطان"

فتح صفحته الأولى وبدأ في قراءة المقدمة وأنفاسه تتسارع محاولًا احكام السيطرة عليها :

--امنح أتباعي مُلكًا لا ينقطع، وروحًا لا تموت، وخلودًا لا يُنتقص، ولذَّة أبدية لا تفنى.

إبليس

يعلم مهران أن البعض يُطلق عليه لقب المسيح الدجال وأن قصره هذا الجنة بالنسبة لمرتاديها يصفونها بالجحيم وكلام من هذا القبيل الذي لا طائل منه بالنسبة له وللمعذبين والملعونين.

طوى كتابه بيساره واحتضنه واتجه للطابق السفلي فوق درجات من المرمر وتبعه كلبه المخلص.. أصوات الحشود تقترب.. يوم لا مثيل له.. سيتغير كل شيء بعد قليل وتُفجَّر المفاجأة الكبرى.. كان للقصر واجهة زجاجية ضخمة تبرز ما خلفه إن أراد صاحبه ذلك أو تخفيه.. انبثق منه اضاءة بيضاء ساطعة كالشمس وسط ذلك الليل الحالك السواد.. ظهر الكاهن الأعظم في شرفة قصره ذات الدرجات الأمامية الموصلة إلى منتصف ساحته.. هلل الجميع:

--يحيا الكاهن الأعظم.. يحيا الشيطان.

قد سُلب الناس عقولهم.. قد تحولوا إلى حيوانات ناطقة.. يمارسون الفحشاء علنًا ولا يتوارون.. اصبحوا أكثر عدائية وتناحرًا وتلاشت كل سمات البشر من تعاملاتهم وكأنهم مسخوا مسوخًا دمائمًا.. لم يُسمح لهم من قبل بالمبيت في تلك الكنيسة مهما حاولوا.. ولكنها باتت دائمًا مصدر أمانهم المزعوم.

استهل فريد زهران خطبته بشعرٍ على لسان بشار بن برد:

--إبليس خيرٌ من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشرَ الفجار

إبليس من نارٍ وآدم طينة والأرض لا تَسْمُو سموَّ النار

هللوا كالبهائم يهتفون:

--يحيا الكاهن الأعظم.. يحيا الشيطان.

تتلاعب كشافات الإضاءة في وجوههم بين الأحمر والأصفر والأخضر وعيونهم تتبدل ألوانها كجلود السحالي.. قد ران على قلوبهم لا محيص.. غُلِّقَت الأبواب والآلاف تتدافع في الخارج متابعين خطاب كاهنهم على شاشات عملاقة خارج القصر.. موسيقا عالية تعزفها فرقة موسيقية على منصة عالية في جانب ساحة القصر.. موسيقا الشيطان.. ترانيم وتعاويذ ممتزجة بأعنف المقطوعات الموسيقية.. كانوا يتمايلون بأجسادهم كالمجاذيب بعدما أشار الكاهن الأعظم إلى الفرقة بالبدء وتعالى صوت مغنيهم بأغنية الشيطان:

--لقد أبرمت عهدًا مع الشيطان.. لن أموت وسأصبح خالدًا..

ليس لي دين غيره.. دين الشيطان.. فليحيا الشيطان.. فليحيا.

في جوار مهران رسم "اليافوميت" رمزًا لعبدة الشيطان القديم.. دائرة بداخلها نجمة خماسية يملؤها رأس كبش وهو رمز الشيطان كما استخدمه من قبل جماعة فرسان الهيكل في العصور الوسطى في أوروبا حيث كان الكبش مقدسًا أيضًا لدى قدماء المصريين وتعني القوة والهيبة.

على يساره نُحِت على الزجاج عين تعلو هرم وهي رمز لعين إبليس وعلى يمينه عين يسقط منها دمعة وهي ترمز لحزن الشيطان على ظلم بني البشر فيما سبق له.

علت الابتسامة وجه الكاهن الأعظم وهو يراهم كقطيع من الأغنام ينفذون كل أوامره في طرفة عين..

--فلنسجد للشيطان في الحال.

في طرفة عين سجدت الحشود وهو يتلو تعاويذه المعتادة وما أن انتهى منها حتى أمرهم بالوقوف مرة أخرى..علا صوته على الموسيقا في مكبر الصوت أمامه:

--إن الشيطان رمز التمرد والثورة والحرية..

الإبليسية هي الاستمتاع بالملذات وليس الزهد والتقشف..

هي الواقعية وليست الأوهام والخرافات..

هي الحكمة النقيَّة وليس النفاق والكذب على النفس..

هي رد الضربة بأقسى منها وليس إدارة الخد الأيسر لمن ضربك..

هي أن حقيقة الانسان لا تعد كونه مجرد حيوان ناطق أحيانًا يكون

أفضل من البهائم وغالبًا يكون أسوأ منها بدرجات..

الإبليسية هي أن معظم تلك التي يدّعونها خطايا وذنوب ما هي

إلا وسائل تفضي إلى المتعة والإرتياح المعنوي والبدني والعاطفي..

الإبليسية هي الحق وماعدا ذلك فباطل.

رفع كتابه بيده ليراه الجميع لأول مرة:

--لقد انقذنا إبليس وأخبرنا في كتابه الطاغوت أن اشارة اتباع الناس له

هو الخلود بلا موت.. خلود أبدي.. واليوم أعلنها لكم على لسانه..

فتح الكتاب ليقرأ منه في منتصفه:

--يا معشر الشيطان وزمرته.. إني أعدكم خلودًا بلا موت.. أعدكم النجاة

فادخلوا في الطاغوت أفواجًا.. واتخذوا دين الشيطان مذهبًا ليبقى أبد الدهر..

علموه لأولادكم وانشروا الطاغوت عقيدةً وحكمًا..

اليوم وقد اصبح للشيطان كنيسة في كل مكان في العالم..

اليوم أُعلنها للجميع.. الطاغوت كتابكم فاتبعوه.

تعالت اصواتهم في حماسٍ منقطع النظير:

--فليحيا إبليس العظيم.. فليحيا كاهنه الكبير.

--إن إبليس يدعوكم للمتعة والإنتشاء.. هلموا.. هلموا.

في ليلةٍ غاب عنها القمر ماج الجميع تحت سماءٍ ملبدةٍ بالغيوم المحتقنة في رقص هيستيري.. خلع البعض ملابسه وصاروا عراة كيوم ولدتهم أمهاتهم وانخرطوا في إثم تقشعر له الأبدان من دون تمييز.. يشربون الخمر والمخدرات بأنواعها ويمارسون الجنس كرمال متشققة عطشى ترتوي بالخمر لأول مرة ،يلطخون أجسادهم بالدماء المنتشرة في قوارير شفافة تملأ الساحة.. دماء حيوانات مختلطة تشتم رائحتها عن بعد.

غرقوا في شهواتهم وتدّثروا بالدماء وسط الموسيقا العالية والمتلاحقة.. يلعقون تلك الوشوم على أجساد بعضهم البعض.. ويقبلون تلك السلاسل والحلي والخواتم التي تحتوي على رؤوس الكباش.

--أنتم شركاء للشيطان في الجسد.. أنتم زمرة الشيطان فهنيئًا لكم.

قالها الكاهن الأعظم مُكررًا ومشاركًا لهم حفلتهم اللعينة.

في مقدمة الساحة تمثال ضخم يطوف البعض حوله.. أخبرهم فريد أنه تمثال رمزي للشيطان وعليهم بتقديسه طالما هم في حضرته.. صنع منه المئات ليملأ المكان بين أسوار ذلك القصر الشاسع الاتساع.

قطع كبرى من الحجارة يتعبدون حولها ويلهثون من هول الشهوة.

لم يكن الوضع هكذا فقط في القاهرة المنكوبة.. بل أنه يحدث في كل كنائس الشيطان في العالم حيث تشاهد الحدث مباشرةً عبر شبكة الانترنت.

أشار حينها فريد مهران بيده فتوقفت الموسيقا بغتة وابتعد كل شهواني عن شريكه ونظروا ناحيته مترقبين.. تداعت الدموع إلى عينيه لأول مرة.. سادت حالة من الصمت المطبق منتظرين ما تخفيه تلك الدموع ورائها.

أشار الكاهن الأعظم إلى رجل في جواره فأشار بعينيه لرجاله فظهروا في الشرفة يدفعون كراسي متحركة عليها أشخاص نائمون.

تركوهم في جوار الكاهن الأعظم قبل أن يتحدث:

--أعرفكم بعائلتي.. إنها المرة الأولى التي أتحدث إليكم فيها عنهم.. أليس كذلك؟

هذه زوجتى ووالدتي العجوز وثلاثة بنات وولد في العاشرة من عمره..

عائلة عظيمة.. فعلت كل شيء من أجل الحفاظ عليهم.. كنت أبغ لهم الخلود من دون موت في نعيم ورخاء.. عشت عمري أبحث عن الحقيقة وأظن أنني مُلاقيها الآن.

نظروا لبعضهم البعض غير فاهمين وتعالت همساتهم التي قاطعها فريد بدموع تتساقط:

--منذ عدة أيام.. ماتت اسرتي بالكامل في آن واحد من دون سبب..

ماتوا أمام عيني وأنا عاجز عن اغاثتهم.. صرخت طالبًا العون منه..

أيا شيطاني!! يا مغيثي وملجأي!! انقذ عائلة كاهنك الأعظم..

ألم تقل في كتابك الطاغوت الذي كلفتني بدعوة الناس إليه بأنك تعدنا خلودًا بلا موت؟ تعدنا النجاة! نجني.. أيها الشيطان.. أيها اللعين.

كان يصرخ بعلو صوته ليغتال ذهولهم..ثم انخرط في نوبة من الضحك الهيستيري ثم هدأ مبتسمًا:

--يبدو أن الشيطان كاذب..

إن الشيطان كاذب لعين.

هلل البعض بقوة وساد الهرج والمرج بين جدران القصر:

--ماهذا الذي تقول؟؟

--يحيا الشيطان العظيم.

--يحيا الشيطان العظيم.

--أيها الناس.. في هذه الأيام اكتشفت أشياءً علي أن أخبركم بها..

ذلك الكتاب اللعين الطاغوت هو سبب اللعنة.. لعنة تتنامى وتزداد..

لعنة تسبب تداخل الأزمنة والفقر والخراب.. لعنةٌ قديمة لن تنتهي

إلا على يد مُنقذ.. مُخلِّص.. ما يحدث اليوم هو البداية.

صمت قليلًا يتابع وجوههم الشاحبة وابتسامة المجاذيب على ثغره وبعينين زائغتين سئلهم:

--أتشتمون تلك الرائحة؟

هذا غاز سريع الاشتعال يملأ الأجواء ولا مفر لكم فالأبواب موصدة.

بدأ الجميع يشعر بالإختناق الشديد ويصرخون:

--أيها اللعين.. افتحوا الأبواب..افتحوا الأبواب.

هرعوا محاولين تسلق الأسوار العالية من دون جدوى.. ترى الذعر في عيونهم أضعافًا وأجسادهم العارية تموج بعضها في بعض.. تعالت صرخاته في حشودهم المتفرقة:

--إن كان الشيطان صادقًا فلينقذنا.. العالم يرانا الآن..

وأقولها بكل صدق.. الشيطان كاذب سفيه..

اعلم أنكم تتسائلون كيف عرفت تلك المعلومات؟

واقول لكم : لا طائل من سؤال رجل بينه وبين الجحيم دقائق معدودة..

كم وددت أن أقابل ذلك المنقذ والمُخلِّص

بنفسي.. ولكنني على موعد مع العذاب.. ولعل اسمه أخر ما سأنطق به

الليلة يشفع لي.

رفع يده لأعلى وفي يده جهازًا صغيرًا يتوسطه زرّ وهو يشاهد جحافلهم العارية الملطخة بالدماء كالجرذان والغاز يسلبهم أرواحهم.. نطقها بصوت خفيض:

--مُخلِّصكم هو محمد بن عبد الله.

وفجأة تحول المكان إلى جمرات من النيران وانقطع البث.. واحترق القصر بكل من فيه كقنبلة مُدَّوية هزت أرجاء العالم أجمع.. ليبدأ عهد جديد من الموت بعد طول انقطاع.. عهدٌ فتحت فيه أبواب الجحيم عن حق وبات البشر مهددين بالفناء.

النبشة الأولى (المُخلِّص)

(بعد أيام- هيئة الإنقاذ - القاهرة الناجية)

أيام النهاية.. حصد الموت أرواح الملايين من الشعوب في آن واحد.. سقطوا الواحد تلو الأخر، لا يكاد يُرى الأحياء في الميادين إلا وسط حشد من الجثث المترامية فوق بعضها البعض.

في غضون أيام مات ما يقرب من نصف سكان الكرة الأرضية.. سقطوا صَرْعَى.. وباتت الأرض مقبرة جماعية لبني البشر.. الموت بسبب الحروب أو جوعًا ،عطشًا أو بسبب وباء قد انتشر بسرعة خاطفة أو إنهم يقتلون بعضهم البعض ليأكلون لحومهم ميتا.

لم يتمكن الناس من التفكير ولو للحظة فيما يحدث بالأخص بعد حادثة كنيسة الشيطان التي احترق فيها الكاهن الأعظم وزمرته.. باغتهم الخراب والدمار من كل اتجاه.. كل ما خطر في بالهم أنهم وحدهم يواجهون نهاية هذا الكون.. فناء جبري لا مُغيث منه.. لا إبليس ولا غيره قادرًا على إنقاذهم.. خاب ظنهم فيما يأملون..ترددت الآهات في كافة الأرجاء وبلغ النواح عنان السماء وأضحى الكون كتلةً من الأحزان الممتزجة بعبق الأموات والأوبئة والإحتضار.. أوشك الإنسان على الإنقراض لتطوى صفحاته من تاريخ الدنيا إن بقيت بعده.. بعض رجال الدين الناجين يزعمون بأن ما يحدث شبيه بفناء قوم يأجوج ومأجوج وبقاء المؤمنين في أخر الزمان.. ولكن سرعان ما بطُل تفسيرهم.. فالبعض تحت الأرض في مدينتهم الناجية لا يؤمنون بالأديان.. فكيف لملحدين أن تُكتب لهم النجاة إن صح تأويلهم؟

ملئت الغربان بطونها وعزفت عن الأكل في غرور جماعي.. بل أنهم يمرون على الجيَّف ويبتعدون باحثين عن بقاع خالية من الموت من دون جدوى.

--أهناك أية وسيلة للنجاة؟

كان أحدهم الباحث عن إجابة لهذا السؤال.. المُقدِم محمد عبد الله عز العرب.. كُلف منذ بداية الأحداث بحل لغز مقتل "يحيى عبد النور بركات" ذلك الشاب الّذين زعموا أن زوال تلك اللعنة سيكون على يده ثم تتابعت الأحداث بشكل مخيف.. لم يتمكنوا من الثبات والقيام بواجبهم تجاه الوطن وهجروا بيوتهم ومكاتبهم وهربوا جميعًا إلى تحت الأرض خلف أسيجة كهربائية أُعدَّت لحمايتهم من المجهول.

اصبحوا كالمطاريد يسكن كل منهم غرفة صغيرة لا تتعدى الثلاثة أمتار.

الشرطة وعائلاتهم.. قوات الجيش وزويهم.. ورجال الدولة من الدرجة الأولى حتى رئيسها..

وبعض رجال الدين ومشاهير المجتمع من فنانين ورجال أعمال.. مدينة مأهولة بالسكان الناجين تحت عاصمة الخراب.

اجتمع الجميع على الخوف والموت المرتقب.. هناك داخل القاهرة الناجية لم يمت أحد.. هكذا أُطلق عليهم.. المجتمع الناجي.

كانوا يتابعون ما يحدث في الخارج من خلال شبكة الانترنت وربما هذا ما ساعدهم في جمع بعض المعلومات قد تساعدهم على النجاة.

****

وقف المقدم محمد عبد الله أمام سَّرير والدته العزيزة "بديعة عثمان" تلك السيدة البسيطة التي كافحت من أجله بعد وفاة والده اللواء "عبد الله محمد أحمد عز العرب" وهو ابن عشرة أعوام.. يعتز بإسمه جدًا ويحب دومًا أن يذكره بالكامل.. فقد ورث الشرف والدفاع عن الحق أبًا عن جد حتى جده الأكبر أحمد عز العرب أول من انتمى من عائلته إلى هيئة الشرطة وأبعدهم شبهًا فكان قصير القامة عريض الجبهة أصلع الرأس على عكسهم تمامًا.. عثر له على صورة واحدة فقط في صحبة جده طفلًا قبل وفاته بفترة بسيطة.. أحبَّ أمه حبًا جمًا.. وكذلك والده الراحل على الرغم من وفاته مبكرًا.. كان ابنهم الوحيد الذي طالما انتظروه بين زيارات الأطباء ومحاولات للإنجاب بائت جميعها بالفشل لخمسة عشر عامًا حتى نجحوا.. مات والده ووقفت أمه صلبة في وجه الدنيا ليخرج لها سندًا ومُعينًا ويُكمل مسيرة العائلة في تطبيق العدل ومحاربة المجرمين وتحقيق الأمن والأمان.

غابت والدته في غيبوبة فجائية في بداية تلك الأحداث ونقلها إلى المجتمع الناجي بأعجوبة بعد تجهيز غرفتها طبيًا بأحدث الأجهزة ولولا عمله الحرج بالأخص هذه الفترة العصيبة ما كان ليفارقها أبدًا.

أغرورقت عيناه بالدموع وهو يتابع صدرها الذي يعلو ويهبط ليطمئن أنها ما زالت على قيد الحياة.. يدٌ ما تربت على كتفه.. التفت ناحيتها.. إنها حبيبته.. فداء.. تلك الفتاة الرقيقة التي خطفت قلبه منذ عامين ولولا تلك الأزمة لصارا زوجين سعيدين يتمتعان بحياتهما سويًا من دون شك.. "فداء" اسم على مسمى فقد ماتت عائلتها في آن واحد في حادث تسريب غاز اشعل النيران في شقتهم بالكامل والصدفة أنقذتها لغيابها عن البيت ذلك الوقت.. وقفت فداء والبيت يحترق بمن فيه عند عودتها من عملها كمضيفة للطيران.. لم تفكر كثيرًا واقتحمت المكان المُشتعل محاولة إنقاذ أهلها.. لم يفلح جيرانها في منعها.. اصيبت بعدة حروق طفيفة ولكنها فشلت في إنقاذ أي منهم.. قد تفحموا بالكامل.. لم تنس فداء ذلك المشهد من حياتها أبدًا.

واقفةٌ وسط النيران وتشتم رائحة أجسادهم المحترقة.. لحظات تتبدَّل فيها الحياة من سعادة إلى شقاء.. لحظات فارقة يتلون فيها العمر بالسوادّ وتعيش المُتبقي منه تقتلها الذكريات.. شُلَّ عقلها أمام ماتراه.. والدها الجالس على كرسيه أمام التلفاز كعادته ووالدتها في جواره وأمامها أطباق تُعد فيها الطعام.. ربما كانت تُحضِر لها الوجبة التي تعشقها.. الملوخية بالأرانب.. وأختها الكبرى وطفلها الرضيع المتفحم على يدها.. لم يمنح الموت أية فرصة للهروب.. وجوههم الصارخة والمذهولة تبدو واضحة بالرغم من تفحمهم.. لتترك بصمات دامية في الذاكرة لا تزول حتى نهاية العمر.

وكأنها شاهدة على الجحيم.. أصابها الذهول للحظات قبل أن تُدرك أن الآوان قد فات.

لم تشعر برجال المطافيء وهم يقتحمون البيت ويبعدونها عن المكان.. ظلت هذه الصورة في رأسها تهاجمها في كوابيسها ربما أبشع من كل ما عاصرته من أهوال فيما بعد.

كان حبيبها في جوارها تلك الفترة وانتقلت للعيش معه وأمه في فيلته الصغيرة في العباسية..

تلك التي اشتراها جده الأكبر أحمد عز العرب وتوارثوها هم أبًا عن جد.

أحب هذه الفيلا كثيرًا، ولطالما جلس في القبو الخاص بها..

قبو الورود.. حافظت والدته على الإهتمام بأنواع متعددة من الورود وقصاري الزرع عادةً قديمة توارثها زوجها عن عائلته وواظبت هي عليها.. لطالما قضى محمد عبد الله لياليه هائمًا شاردًا وعيني حبيبته فداء تلازمه وسط الورود في قبو الذكريات.. هكذا اطلقت عليه والدته فقد زينت حوائطه بصور لأجمل لحظات حياتها مع والده الراحل ثم معه.. وها هي صوره مع فداء تنضم لقبو الورود لتقتحم حائط ذكرياته وتتربع في قلبه للآبد.

كان على وشك الزواج منها بعد حادثة حرق عائلتها بإسبوع واحد.. ذلك القران الذي تأجل لأكثر من مرة وبات زواجهما أملًا بعيدًا صعب المنال.

مازالت تتذكر كلماته الرقيقة لها في بداية علاقتهما.. هذه الساحرة ذات العينين السوداويتين التي سرقت قلبه.. صاحبة الشعر الأسود الطويل المنسدل كليل يملؤه البهاء يتمنى التيه بين ساعاته من دون شروق.. فاتنة هي وكأنها حورعين ضلت طريقها من الجنة إلى الدنيا لتصبح من نصيبه ولكن للأسف مع وقف التنفيذ.

"أنتِ يا من تسمعين كلماتي..

أنتِ يا من تسلبين العقل والروح..

أنتِ يا مالكة جيوش العشق في قلبي..

أُحبّك"

****

ضابط استثنائي ليس كهؤلاء الغلاظ الشداد الذين تربوا على الحدة والعنف بل هاديء الطباع مبتسمًا ودودًا لا تتوقع أبدًا مهنته حينما تراه لأول وهلة.. تعتقد بأنه رسام أو فنان مرهف الحس فياض المشاعر ومع ذلك يعتبرونه من أذكى ضباط الشرطة على الاطلاق.. لم ينس قادته تلك القضية القديمة التي حيّرت الرأي العام منذ سنوات واحرجت قيادات الداخلية لعدم قدرتهم على فك ألغازها ولم يسبر أغوارها بجدارة غير ذلك النقيب الصغير محمد عبد الله.. ومن وقتها لُقب بالعقرب.. ما صغُر حجمه وتعاظم تأثيره.. قد تستهون به وتبالغ في السخرية من قدراته ولكن مهارته في التعامل مع القضايا جعلته افضل أبناء جيله من الداخلية.

اهتم العقرب بالقراءة كثيرًا في كل المجالات وبالأخص التاريخ فكان مغرمًا به حد الشغف بل وأن له محاولات كتابية من خواطر يومية يدونّها تعليقًا على ما يعاصره.. أخر ما كتبه قبل أن ينخرط في خضم تلك الأزمات:

--رُسُل وأديان وأنبياء وكتب سماوية وغير سماوية..

الجميع يحذرنا من خطايا البشر المتكررة.. القتل.. الزنى..

الطمع.. السرقة.. ممارسة المحرمات بكل أنواعها..

ماذا فعلنا نحن لنمنع تلك الخطايا؟ لا شيء..

نحن نستحق ما آلت إليه الأمور.

إنها الحقيقة.. البشر هم سبب تلك اللعنة الخارجة عن أي منطق يُذكر.. ولا حق لأحد في البحث عن تفسير لتداخل الأزمنة وغياب الموت لشهور عديدة ثم عودته بتلك الشراسة المرعبة.. كل ما يمكنهم فعله هو البحث عن مخرج.

امتلك العقرب دائمًا نظرة مختلفة ومغايرة للأمور ولعل هذا ما ميزه عن زملائه..

ضابط شرطة في جسد فيلسوف لو أنه في زمان أخر لأصبح كاتبًا عظيمًا تتوارث الأجيال أفكاره ووجهات نظره.. عمله شاق وسط المجرمين والخارجين عن القانون.. عقله كالصقر ينقض على فريسته بأسرع ما يمكن وقلبه كالأسماك لا تستطيع العيش بدون المياه ومياهه الحب والعشق.. وكانت عشقه التي طالما بحث عنها بين البشر.. فداء.

تلك التي لمست روحه بحنانها الدافيء المطل من عينيها الساحرتين.. من سجد قلبه في رحاب عشقها المقدَّس وقدَّم أشواقه قربانًا للقاء.. كتب ذات مرة مع باقة ورود أهداها إليها:

--أغارُ عليكِ من هواءٍ يملك التسلل إليكِ.. يلامس خديكِ، ويهمس في أذنيكِ، ويداعب شفتيك، بكل ما أصبو إليه وأرجو.

برع في انتقاء الكلمات لتُشكل باقة من أروع باقات الغزل في حضرتها..

ابتسمت له كأنها تفتح بابًا من الجنة إلى قلبه:

--لم اتخيل أن مثل تلك الكلمات تخرج من ضابط شرطة.

ضحك مُمسكًا وجهها بين راحتيه:

--من ذا الذي لا يُسلَب عقله وقلبه في حضرة هاتين العينين الرائعتين؟

--أعشق النظر إليك.

-- أنتِ لعنة أدمنت عذابها ،وفي نيران عشقها المستعر يذوب قلبي كلما أصابتني سهام

عينيك.. يا فاتنتي أما من بوحٍ يرحمني؟

أما من عدلٍ ينقذني؟

أنا شهيد العشق والمعشوق يهجرني..

والسهد والهجر والفراق يصاحبني..

سأموت يومًا على أبواب قلبك خرسًا..

حينئذ ستفتقدين ذلك المُعذب بحبك..

ستفتقدين أشواقي.

--أحبُّك.

ارتعش قلبه لكلمتها ورقصت روحه من فرط السعادة..

--إنها المرة الأولى التي تصارحيني بها.

احمرت وجنتيها في خجل وعشق ممتزجين.. كم يحبها تلك الفاتنة! كم تمنى أن تلازمه عمرًا!

ولكن القدر لم يُمهلهما فالمصائب تتابع على رؤوسهما من دون رحمة.

****

قبَّل يدها بعدما مسحت دموعه في تلك الغرفة المجهزة طبيًا.. همست له بصوت خفيض:

--لا تخف يا حبيبي.. ستفيق.. ستعود أفضل مما كانت عليه.

--لقد طال مرضها.. أخاف أن تتركني وحيدًا وترحل.

--لست وحيدًا.

تنهد:

--سأذهب..ابقِ بجوارها.

تماسك وقبل رأس والدته والقى عليها نظرة وداع وخرج.. ربما لن يراها من جديد..

اجتمع بهم رئيس الدولة عدة مرات مُسبقًا وترأس هو مجموعة البحث وراء الألغاز المتتالية واليوم ميعاد اجتماعهم الدوري.

كان أحد الأعضاء الهامين في هيئة الإنقاذ التي تشكلت بعد أزمة تداخل الأزمنة وبصفته أول من حقق في قضية قتل "يحيى عبد النور بركات" التي قيُدَّت ضد مجهول حتى هذه اللحظة.

حمل أوراقه وتقدم فريقًا من قيادات الشرطة نحو غرفة الاجتماعات.. تخلوا عن أسلحتهم في الغرفة الخارجية المُلحقة وتم تفتيشهم من الحرس الجمهوري كإجراء احترازي مُعتاد.

دخل إلى غرفة الاجتماعات الواسعة المُغلقة أبوابها خلف حراس الرئيس وكبار رجال الدولة..

وتحت تلك الورود المُعلقة في المواسير أعلاها محاولةً لإخفاء معالم المكان من دون جدوى..

منضدة مستطيلة يجلسون عليها وعلى رؤوسهم الطير ينتظرون نتائج هيئة الإنقاذ حول مستجدات الأزمة والتحريات عن هذا الكم الهائل من الموتى في الخارج.

ادى التحية العسكرية ووضع ذلك الملف الذي في حوزته أمامه وارتدى نظارته الطبية وادار جهاز العرض التليفزيوني ليبدأ عرضه على شاشة التلفاز أمامهم.. وتظهر صورة فريد مهران عليها:

--فريد مهران.. رجل أعمال هاجر إلى سان فرانسيسكو – كاليفورنيا منذ أن كان شابًا..

تزوج أمريكية وانجب منها ثلاثة بنات وولد.. فاحش الثراء.. لم يزر مصر لأكثر من عشرين عامًا..ظهر منذ عدة شهور فجأة في القاهرة..

أُشْتُرَى لحسابه عشرة فدادين من أراضِ الدولة قبل سنوات وشُيدَّ

عليها قصره الضخم الذي أُطلق عليه كنيسة الشيطان..

لدينا معلومات تقول أن هذا القصر تم بناؤه بعد تداخل الأزمنة في فترة

وجيزة للغاية.. مصطلح كنيسة الشيطان ليس بجديد.. أنشئت أول كنيسة له في سانفرانسيسكو وهي في الأصل مُنظمة وقد يطلق عليها شبكة تضم مجموعة من الذين يمارسون الديانة الشيطانية كما كُتب في الإنجيل الشيطاني الذي كتبه "انتون لافي" في عام 1969.. وكان كاهنها الأعلى في ذلك الوقت ووصفها بأنها ديانة الملحدين الذين في الحقيقة لايؤمنون بالله ، وبناء على ذلك يجب أن يستمتع الناس بحياتهم الحالية وأن يحيوها كاملة أو كما يحلو لهم.. زاد أتباع تلك الكنيسة في كل مكان في العالم وضم مجموعة من المثقفين والسياسيين حتى موت مُنشئها في نهاية القرن الماضي.. فريد مهران في خطابه الأخير قال عدد من المقطوعات المكتوبة في انجيل الشيطان الخاص بانتون لافي..

--إن الشيطان رمز التمرد والثورة والحرية..

الإبليسية هي الاستمتاع بالملذات وليس الزهد والتقشف..

هي الواقعية وليست الأوهام والخرافات..

هي الحكمة النقيَّة وليس النفاق والكذب على النفس..

هي رد الضربة بأقسى منها وليس إدارة الخد الأيسر لمن ضربك..

هي أن حقيقة الإنسان لا تعد كونه مجرد حيوان ناطق أحيانًا يكون

أفضل من البهائم وغالبًا يكون أسوأ منها بدرجات..

الإبليسية هي أن معظم تلك التي يدّعونها خطايا وذنوب ما هي

إلا وسائل تفضي إلى المتعة والإرتياح المعنوي والبدني والعاطفي..

الإبليسية هي الحق وماعدا ذلك فباطل.

تغيرت الصورة على بعض اللقطات للقصر المتفحم والجثث المحترقة عن أخرها.. اكمل تقريره لهم:

--تفحم القصر بكل من فيه وقوات الاستطلاع لم تعثر على ذلك الكتاب

الذي كان بيده المسمى بالطاغوت دين الشيطان ونعتقد أنه مختلف عن

انجيل الشيطان السابق له.. من الواضح أن فريد مهران من أتباع

كنيسة الشيطان الأم في أمريكا وببعض البحث توصلنا لأسماء رجال الأعمال

أصحاب بعض الكنائس في الدول الأخرى.. وجميعهم أعضاء في هذه الكنيسة

الأم في سان فرانسيسكو وربما عاصروا انتون لافي.

--هل أصابت اللعنة أمريكا وإسرائيل؟

--لم ينج أحد.

--الطاغوت! دين الشيطان!

-- الحديث عن تداخل الأزمنة والخلود بلا موت لم يُذكر من قبل إلا في الطاغوت وهذا ما قاله فريد في خطابه.

--علينا بالبحث عن ذلك الكتاب.

--فريد مهران ذكر في نهاية خطابه أن اللعنة المتعلقة بكتاب الطاغوت في طريقها إلى الزوال على يد مُنقذ من البشر.. مُخلِّص.. وذكر اسمه.. محمد بن عبد الله.

قاطعه رئيس الدولة مُستفسرًا:

--ربما يقصد الرسول عليه الصلاة والسلام.. أليس كذلك؟

--أو يقصد المهدي المُنتظر.

قالها مفتي الديار المصرية الجالس على مقربة منه.. فأجابهما:

--نحن نبحث وراء كل الاحتمالات يا سادة..

بحثنا كذلك عن جميع الأشخاص بهذا الإسم ووجدنا الفين وخمسمائة وستين

يحملونه منهم من مات ومنهم من فُقد ويستحيل علينا الوصول لهم في الوقت الحالي.

--أنت أيضًا تحمل نفس الإسم؟

--نعم سيدي الرئيس.

--سحقًا.. ماهذه الألغاز اللعينة؟

قالها الرئيس وسط ذهول ودهشة الجميع.. استكمل ملاحظاته القيّمة:

--تداخل الأزمنة كما تعلمون تناوله الروائي المعدوم شنقًا يعقوب إدريس

في روايته الأخيرة النبَّاش نتيجة لعنة تزول بمحو خطايا الماضي والحاضر

والضابط محمود غندور الذي تولى هذه القضية منذ بدايتها قُتل أيضًا في نفس

اليوم الذي قُتل فيه يحيى عبد النور بركات المُفترض أنه المُخلِّص حسب تلك الرواية..

لو أننا افترضنا أن فريد مهران كاذب سيبقى أمامنا احتمال واحد فقط أن المُخَلِّص من اللعنة هو يحيى عبد النور بركات..

--ولكنه قُتل أيها المقدم.

--لدي معلومة أخرى هامة.. حصلت أجهزتنا على إشارة بتاريخ الثالث من فبراير عام 1910

تفيد بهروب المتهم يحيى عبد النور بركات من قرة قول* الشرطة في قرية صغيرة في الصعيد.. إشارة موجهة الى القاهرة.

--ماذا؟

--كما فهمت سيادتك.. هناك شخص أخر اسمه يحيى عبد النور بركات..

شخصٌ عاش قبل مائة عام وبالبحث ورائه لم نعثر له على شهادة وفاة.

--أما زال على قيد الحياة؟

--لا إجابة عندي لهذا السؤال الآن.. ولكنني استئذن سيادتكم في الخروج

والسفر إلى تلك القرية لربما أجد إجابة شافية.

--إن الموت يحصد الجميع بالخارج أيها المقدم.

قرة قول:مصطلح أُطلق في العهد العثماني على أقسام الشرطة واستمر حتى النصف الأول من القرن العشرين.

--لا مناص من المحاولة.. علي بالعثور على يحيى بركات..

ربما فيه خلاصنا جميعًا.

--لا أقوى على هذا الجنون.. ضابط شرطة سيخرج ليبحث عن هارب

من حجز في قرية في أطراف الصعيد منذ أكثر من مائة عام ويزيد.

تبًا لتداخل الأزمنة.. هكذا يمكنني الذهاب إلى الملك مينا موحد القطرين

واحتساء القهوة معه.

--اعرف أن ما يحدث لا يخضع لأي منطق أو عقل..

ولكنه حدث على أي حال.

--حسنا.. حسنا.. فلتخرج في مدرعة مغلقة إلى هناك وداوم على الإتصال بنا

لتُخبرنا بكل المستجدات أيها المقدم.

وانتهى الاجتماع على الأقل بالنسبة له.. خرج مصطحبًا أوراقه واستنتاجاته معه.. وتلك الاشارة الشرطية الموقعة بإسم الضابط المسئول عن قرة قول بوليس قرية صغيرة في الصعيد .. أحمد عز العرب.. إنه جده الأكبر.. إن جميع الخيوط تتجمع حول العقرب.. تركهم يتشاورون ويتبادلون الأراء حول ما أثاره اليوم.. كتب الرئيس أمامه بعض النقاط وظل صامتًا ينظر لها ويفكر:

--فريد مهران عضو في كنيسة الشيطان الأم.

--الطاغوت دين الشيطان سر اللعنة.

--يحيى عبد النور بركات المُخلِّص بحسب رواية النبَّاش.

--محمد بن عبد الله المُخلِّص بحسب خطاب فريد مهران.

كان هناك شيئًا في داخل العقرب يلح على رأسه بأنه المقصود.. هو المُنقذ المزعوم من فريد مهران.. لم يكن هناك أحد في المدينة الناجية يحمل ذلك الإسم غيره.. يالها من مصادفة عجيبة! الضابط المسئول عن تلك الأزمة يُذكر اسمه على لسان الكاهن الأعظم للشيطان وهو يُعلن توبته أمام الملايين ويصفه بأنه المُخلِّص من تلك اللعنات.

مخاطرة شديدة في الخروج بطريقٍ يملؤه الموت في كل مكان.. طائرات حربية تُحلق وجيوش تهجم وأُناس تحتضر جوعًا باحثةً عن صيدٍ ثمين ليأكلوه حتى وإن كان ذلك الصيد إنسان.

تركهم يتجادلون وذهب إلى غرفة أمه ليودعها.. قبَّل وجنتها والدموع تملأ عينيه.. لم ينتظر موافقة قادته على الخروج فقد عزم على ذلك قبل الإجتماع بيومين بعدما وصل إلى تلك المعلومات الخاصة بيحيى عبد النور بركات ذلك الهارب قبل قرن من الزمان.

نظر إلى حبيبته فداء وتلعثمت الكلمات وانتحرت بين أحباله الصوتية.. ضمته بقوة لينهل من حنانها الفياض.. هذه التي يصر القدر على فراقهما ولكنه آمل في لقاء بعيد.

الجحيم إمرأة والنعيم إمرأة وبين هذه وتلك بُعدٌ وفراقٌ وهجر.. ونعيمه في قربها دائمًا ولكن لا مفر.. إنه القدر.

--ستعود.

قالتها بابتسامة فاترة تغالب دموعها

--أُحبّك.

--سأنتظرك.

قبلته ليتذوق شفتيها لأخر مرة وغاب معها في قبلة ذابت أرواحهما خلالها.

تركها فجأة وخرج موصيًا إياها على أمه..

نادته فالتف لها بعينين زائغتين:

--لن يمض قطار العمر بدونك.

ابتسم لها.. تلاقت أعينهما للمرة الأخيرة.. ركض سريعًا إلى باب الخروج من تلك المدينة الناجية تحت الأرض والمهددة بنفاذ المؤن عن قريب ليستقل مدرعته المُجهزة لاختراق أودية الموت في هذه المهة المُفعمة بعبق الموتى.. جلس في جوار ذلك الجندي الذي اختاره ليصاحبه في مهمته الخطيرة.

تحرك به سائقًا وابتعدا عن تلك السياج الحامية لمقاطعتهما.

تداعت الأفكار والاحتمالات على عقل العقرب في كثافة مريعة.. أيكون ذلك الكتاب اللعين "الطاغوت" سببًا فيما يحدث؟ وكيف وصف مؤلف رواية النبَّاش ما يعانيه بني البشر من موت وخراب قبل حدوثه؟ ومن هو المنقذ؟ أهو؟ أم المدعو يحيى عبد النور بركات قبل قرن من الزمان؟

شيئان عليه البدء في السعي ورائهما لربما تتضح بعض الأمور.. يحيى بركات، الطاغوت كتاب الشيطان.. وأول الخيط هو تلك القرية البعيدة في الأقصر"قرية القرنة القديمة"

ابتسم العقرب فلأول مرة يجد فائدة من تداخل الأزمنة.. إذ يمكنه بسهولة التحقيق مع أُناس واراهم الثرى منذ عقود مضت.

مدَّ يده ليدير ذك المسجل داخل المدرعة ليعلو صوت أم كلثوم من تلك الاسطوانة التي أعدَّها لترافقه في رحلته:

--فات الميعاد.. وبقينا بعاد.. والنار دخان ورماد.. فات الميعاد.

تلك المرة الأولى التي يخرج فيها بعد تلك النكبة.. مشاهدة اللقطات عبر الانترنت مختلف تمامًا عن أرض الواقع.. يعتصر قلبه حزنًا على تلك الجثث المُلقاة فوق بعضها البعض في كل مكان.

وتلك البيوت والمباني المُهدَّمة والناس المتفرقة ينهكها المرض والجوع بين تلك الجثث..

البعض يمضغ لحوم الجيف المتعفنة في مشهد تقشعر له الأبدان.

المطر يتساقط وكأن السماء تريد تطهير الأرض من هذا الخبث المنتشر من دون جدوى.

أصوات عظامهم المتكسرة تحت المدرعة تخلع قلبه.. تابع الساحات من شباكه المُغلق بزجاج ضد الاختراق.. يرى أُناسًا يرتمون عليهما فاتحين أفواههم ثم يتهاوون بين موتى وجرحى خلف المدرعة..

يسمع رجل ينادي:

--لقد قُتل السادات.

وأخر:

--أعلن مبارك تنحيه عن الحكم.

وأخر:

--التتار على الأبواب.

وجيوش تتحارب على مدى البصر من مختلف الأزمان.. سيوف ودروع تتبارز ورؤوس تطير ودماء تختلط..

--إنهم يبحثون عن طومان باي في كل مكان.

رأى ضفادع تغزو الساحات ودماء تملأ مياه النيل وطائرات تُحلّق فوقهما وتلقي قذائفها التي يتفاداها بأعجوبة.. رأى أُناسًا يهتفون:

--يحيا الهلال مع الصليب.

وأخرون:

--يسقط يسقط حكم العسكر.

وغيرهم:

--يسقط يسقط حكم المرشد.

--لقد وصلت قوات نابليون بونابرت الاسكندرية.

أناس يتراقصون وتتخلل تلك الفوضى أغنية لعبد الحليم:

--ضربة كانت من معلم.. خلت الاستعمار يسلم.

رأى فتاة شديدة الجمال ترتدي رداءً فضفاضًا أبيض اللون تقف في منتصف أحدى الساحات وتنظر تجاهه وكأنها تراه.. ثم انخرطت في رقصة فردية.. رقصة الخراب فوق دمار منقطع النظير.. مرت المدرعة بالقرب منها فتوقفت من جديد واقتربت وكأنها تهمس له من خلف الزجاج.. قرأ شفتيها:

--النجاة بيدك أنت.. أنت فقط.

أمَر الجندي في جواره:

--توقف.

توقفت المدرعة ولكنه لم يقو على الخروج.. فخارجها انتحار مؤكد.. اقتربت تلك الفتاة أكثر وأكثر..

--المُخلِّص.

همست بها قبل أن تختفى بين تلك الحشود حولهما..

موكب لأحد ملوك المصريين القدماء هناك وبوق يحمله أحد خدمه يصدر فيه صوتًا عاليًا يُعلن قدومه في زهو وانتصار.. رجال عراة إلا من قماشة تلف جزئهم السفلي يضربون الطبول بقوة.. وعلى جانب آخر يرى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في سيارة مكشوفة يلَّوح للناس بيده وهم يهتفون له.. وجيش تعلوه رايات مكتوب عليها لا إله إلا الله.. ورجال يحملون صور للرئيس الراحل محمد حسني مبارك ويهتفون بحماس:

--ارحل.. ارحل.

وغيرهم يحملون صور للرئيس الراحل محمد مرسي ويهتفون بحماس أكبر:

--ارحل.. ارحل

وكأنه يتابع فيلم سينمائي ينتمي للخيال العلمي لا يصدقه عاقل ولكنه يعايشه رؤى العين.. أمره بالتحرك..وابتعدا عن العاصمة ووجه تلك الفتاة لا يغيب عن ذهنه.

--النجاة بيدك أنت.. المُخلِّص.

هذه الرسالة تؤكد أنه المقصود.

اخترقت المدرعة معركة دائرة بين المماليك والأتراك.. كانت الرؤوس المقطوعة تترامى عليهما من الخارج بينما تشق طريقها محاولة الابتعاد عنهم.. دمائهم تُلطِخ زجاجها..

صوت رمال الصحراء يتعالى وكأنها عاصفة تقترب لتشترك أحيانًا مع هطول الأمطار بين الحين والأخر.

كانا في اتجاه الصعيد.. وهدأت الأوضاع حولهما قليلًا وشرد العقرب مع صوت أم كلثوم:

--وكفاية تعذيب وشقاء.. ودموع في فراق..

ودموع في لقاء.

لحظات استرجع فيها حياته بالكامل.. ابتسم مُتذكرًا خواطره:

--ياليت الصبا يعود يومًا.. حينما كنتُ والأحلام رفقاء درب.. وفي جنته للأحباب ملتقى.. لا مال ولا عقل يُحتكم.. والقلب تسكنه الملائكة والوهج.. ينيرالعمر بعده.. ياليته في صباه ينتهي.. قبل الآلام والوهن.

تذكرأدفأ اللحظات مع أمه.. أحضانها وحنانها المنقطع النظير.

وفداء.. وقلبه الذي ينبض بحبها ويشتاق لهمساتها.. لمساتها.. عبق روحها الخلاب.

--وفي عينيها ليل سرمديّ تبارز الدنيا من أجل لحظة اللقاء خلسةً متمنيًا الموت على دين عشقها البَتّار.

لم يقطع شروده غير صوت الجندي المذعور:

--ما هذا؟

نظر أمامه ليجد موجة عالية من نيران تقترب.. إنه بركان ثائر.. هناك دراسات نُشرت في صحيفة الاندبندنت الإنجليزية تقول بأن مصر القديمة تعرضت للإختفاء جزئيا خلال فترة من الزمن بسبب تغيرات مناخية وبراكين.. وبدراسة عدة مناطق شرق أبو زعبل في القليوبية أُثبت أن المنطقة تعاني من آثار بركان خامد خلف صخور البازلت.. وفي عام 2016 اعلنت وزارة الآثار اكتشاف بقايا بركان سان تورين الذي ضرب البحر المتوسط وكان سببًا لأول تسونامي في التاريخ.. كان كثير الاطلاع والدراسة ولكنه لم يدرك أن الأمور قد تصل إلى هذا الحد.. صرخ في الجندي:

--عد للخلف سريعًا.

استدار وانطلق بسرعة جنونية والموجة تقترب منهما.. شعر بحرارة شديدة ربما تعلن النهاية..

لن تمهلهما بالنجاة.. لا تفلح الأمطار في تهدئة وطأة ذلك البركان المطارد لهما..

ستُباد القاهرة عن بكرة أبيها وربما يموت كل من نجوا بسببه.. لن تحميهم تلك السياج الكهربائية من هذا البركان.. إنها النهاية.. البركان يقترب.. سرعته أكبر منهما.. نظر إلى الجندي وصوت أم كلثوم يعلو كأخر صوت يسمعه في هذه الدنيا:

--فات الميعاد.

وغرقت المدرعة في تلك الموجة الشديدة من البركان وانتهى كل شيء.. الوداع.

(قبل ذلك ب ١١٠ عام)

النبشة الثانية

يحيى عبد النور بركات

(الأول من فبراير 1910 – قرية القرنة القديمة)

الحُبُّ منجاة البشر.. تركةٌ تتوارث عبر الأزمان، وهاجرها يهدده الفناء.. بركانٌ ثائر لا يخمد يجتاح قلوب العاشقين الموكلين بالحياة.. الدنيا عاشق ومعشوق ،وشقوق تملؤها المِحَن.

العشق دين العشاق، وقُدُس المغرمين ، وعلى بابه المقدس يمنح أكسير الحياة.

للحب أنبياء ورُسُل يحملون قبس النجاة من طوفان عارم أمواجه البُغض ورياحه الحروب والدماء ومرساه الهلاك.

ذات يوم استيقظ آدم أب البشر أجمعين من سبات يملؤه الوحشة والوحدة والحزن في جنة الله .. رآها لأول مرة جالسة في جواره تبتسم.. حواء.. مخلوق يآسر قلبه من الوهلة الأولى.

في عينيها نبع من حنان وأمان.. تلك اللحظة الأولى للحب بين بني الإنسان.. بذرة غرسها الله في قلبيهما لتنمو عبر الأجيال.

آدم وحواء قصة عشق تدين لها البشرية بأكملها.. نظرة فلقاء فتَعَلُّق فعناق فعمر ودنيا تواجه الفُرْقَة والشقَاق.. وبذور الشر يبذرها الشيطان في أرضٍ يملكها الإنسان.. وصراع دائر بين الحبّ والشيطان.

في كل زمان ومكان آدم يبحث عن حواء وشيطان يقاتل من أجل الفراق.. حرب ضروس تدق طبولها في كل آن.. وتسطر قصتها في كتاب الدنيا بحروف من نور ونار.. ترى من الغالب؟

من ينتصر؟ أنت فقط من تختار قصتك.. الإنسان.

الزمان: الأول من فبراير عام 1910

المكان: قرية القرنة القديمة.. قرية صغيرة في الأقصر تمتد بين الجبل ونهر النيل ويفصلها طريق رملي مجاور لطريق السكة الحديدية الجديدة .

الأبطال: يحيى عبد النور بركات وزينة متولي زيدان.

كان لها آدم وكانت له حواء.. ألقى العشق سهامه بين قلبيهما وتعلقت أرواحهما مُقْسِمين باللقاء في جنة أحلامهم التي حاربوا الدنيا من أجلها.

يحيى عبد النور بركات شاب في مقتبل العمر في أوائل الثلاثينات.. انهى تعليمه الإبتدائي ولم يُكمل دراسته لتوليه شئون عائلته بعد مرض والده القعيد.. انتقل بين عدة أعمال شاقة واستقر به الحال في نقل الفاكهة من أراضِ القرية الزراعية إلى مجموعة تجار يقومون بتوزيعها في محافظات مجاورة.. ذلك الفتى الذي أحبه كل أهالي قريته الصغيرة الحافظ لأكثر من نصف القرآن.

قرية القرنة القديمة التي يحدها من الجانب الغربي وادي الملوك.. مقابر قدماء المصريين التي تم اكتشافها منذ قرن مضى بعد تحديد مكان عاصمة مصر القديمة.. طيبة.

قبيل الثورة الصناعية وقبل القرن التاسع عشر كان السفر من أوروبا إلى طيبة من المهام شديدة الصعوبة والتكلفة ولم يقو على هذه التجربة سوى أعتى الرحالة الأوروبيون، ولم يكن موقع مدينة طيبة معلومًا على وجه التحديد، فكل ما توفر من معلومات عن هذه المدينة هو موقعها على ضفاف نهر النيل ، حتى جاء المغامر والفنان الدنماركي فريدريك لويس نوردن ليكون أول من يدَّون مشاهداته بمدينة طيبة، وتلاه بعد ذلك البريطاني ريتشارد بوكوك لينشر أول خريطة حديثة لوادي الملوك عام 1743.. وبعدها بخمسين عام جاء علماء الحملة الفرنسية ورسموا خرائط مفصلة لكل المقابر المكتشفة حتى ذلك الوقت ووصفوا مدينة طيبة والمنطقة المحيطة بها في عملهم الموسوعي "وصف مصر" واستمرت الحملات الكشفية الأوروبية في التوالي على هذه المنطقة وتوالت الاكتشافات.. واعتاد طاقم التنقيب الأوروبي على الإقامة في "بنسيون" في جانب محطة القطار "بنسيون وادي الملوك" ذلك المبنى العتيق القريب من مناطق التنقيب والواقع على بعد نصف كيلو متر من بيوت القرية.

اعتاد أهل القرية على تلك الوجوه الغريبة التي ترتاد دروب قريتهم في طريقهم إلى الغرب بل إن أغلبهم صُبِغوا طوال المائة عام بهوس هؤلاء في البحث والتنقيب عن الآثار وبيعها بأبخث الأسعار.

أصحاب الجلابيب من يركبون الحمير والجمال ويحرثون الأرض تحت شمس تصبغ وجوههم بالسمار.. أصحاب التجاعيد المتشققة وجوههم المنذرة بالشقاء والكفاح قد تحولوا إلى نابشي قبور أجدادهم.. النباشين.. هكذا أطلق عليهم جيرانهم من القرى الأخرى.. اصبح أكثر ما يهمهم هو البحث عن مقبرة جديدة يغتالون محتوياتها لصالح هؤلاء الأوربيين.

المتهم الأول لبيع الآثار هو نابليون بونابرت الذي فتح المجال لسرقة آثار وكنوز مصر وتهريبها إلى فرنسا وأوروبا ومنذ ذلك العهد ازدهرت تجارة المومياوات بالأخص في صعيد مصر وكان معتاد أن تشاهد بائعًا متجولًا يعرض مومياء مُحنطة منذ آلاف السنين على الرصيف وينادي ببيعها.

كان من مظاهر الوجاهة والارستقراطية لدي الأوروبيين في منازلهم وضع المومياوات كقطع ديكورية فريدة ويتباهون باقتنائها بل حولّها بعضهم إلى مواد استخدمت في تصنيع وقود السيارات والقطارات أو طحنها لاستخدامها كسماد عضوي لأراضيهم وكذلك الأقمشة الكتان المحاوطة لها استخدمت في صناعة الورق في الولايات المتحدة الأمريكية.

حاولت السلطات المصرية الحد من تلك التجارة تدريجيًا ففي عام 1835 أصدر "محمد علي" مرسومًا بحظر تصدير الآثار المصرية والاتجار بها ،وفي عام 1858 تم انشاء مصلحة الآثار للحد من تلك التجارة المحظورة والاشراف على البعثات الاجنبية.

وتعاملت الحكومة مع هؤلاء التجار كمجرمين وإن لم يصدر قانونًا بتجريمهم صراحةً حتى ذلك الوقت بل وأرسلوا ضباطًا لمحاربة تلك الظاهرة والقبض على نابشي القبور.

وقف يحيى عبد النور بركات في صباح الأول من فبراير عند مدخل القرية الزراعي ظهرًا والشمس تختبيء خلف سحب ركامية تملأ السماء.. بين التمثالين القديمين من الأحجار على شكل حيوانين جالسين وكأنهما يستقبلان ويودعان الداخل والخارج من قريتهم.. مكتوب على جسديهما عدة عبارات:

--لا إله إلا الله.

--أدخلوها بسلام آمنين.

--الله أكبر.

وبعض من علامات لكفوف خضبت بالدماء.. وقف يتابع الرجال الذين يحرثون الأرض بفؤوسهم وابتسامة خافتة على وجهه.. والنسوة ذوات العباءات الفضفاضة زاهية الألوان تملأن المياه من النيل لتكفين بيوتهن باحتياجاتهن اليومية من الماء.. وذلك الرجل العجوز في مدخل القرية ذي الجلباب المهتريء وطربوشه المتسخ وعصاه التي يتراقص معها ثعبانه الصغير الذي أنهكه الجوع والحرمان لعلهما يحصلان على قليل من المال لغذاء يومهما من بعض الأطفال الصغار وأهاليهم المجتمعين حولهما يصفقون لهما كل يوم وكأنه مشهد يتكرر من دون توقف.

ونساء تكشفن أرجلهن البيضاء رافعين عبائتهن جالسات على حافة النهر تغسلن الملابس والصحون.. وتلك الطيور فوقهم في أسراب تغدو بعيدًا وتعود.

وتلك العجوز قارئة الطالع، من تجلس أحيانًا في مدخل القرية تتاجر بالكلام وتنبش الغيب، وجهل الناس ملاذها وقوت أيامها.. ذات مرة نصحها يحيى بالكفّ عن تلك المهنة الحرام والبحث عن طريق حلال لكسب قوت اليوم بل وعرض عليها مساعدتها ببعض الفاكهة والخطار تبيعه إلى لناس في سوق القرية ولكنها رفضت ساخرة:

--أنا أعلم الغيب يا ولدي وما أتنبأ به يحدث.

--لا يعرف الغيب الا الله.

--اعطني كفك.

ضحك يحيى ساخرًا:

--يا لك من عجوز غلبها الخرّف.

--جرب.

ناولها كفه في سخرية.. فتغيرت ملامحها بعد لحظات ونظرت له بعينين غائرتين زائغتين:

--حريق هائل وأنت منقذه ومُخلِّصه الوحيد..

أبواب اللعنة تحتاج لمن يغلقها وأنت وارثها..

دَيْن قديم كُتب عليك سداده.

سحب يحيى يده من راحتيها وابتعد مستهزئًا بها وبأولئك النسوة المجتمعات حولها كل مساء لتقرأ لهن الطالع والغيب.

أحب يحيى قريته بكل تفاصيلها.. اغرورقت عيناه بالدموع فربما لن يشهد صباح جديد في نفس المكان بعد الآن.

صوت آذان الظهر يعلو فوق مأذنة مسجد القرية الوحيد:

--الله أكبر.. الله أكبر

تنهد يحيى واتجه ناحية المسجد.. مرعلى مجموعة من الأطفال الصغار أصحاب الطرابيش والسترات الباهيات فوق جلابيب بيضاء.. إنهم رواد كُتَّاب المسجد، من يتعلمون القرآن ويحفظونه.. ما أن رآه الأطفال حتى ركضوا تجاهه:

--شيخ يحيى.. شيخ يحيى.. أهناك درس اليوم؟

جثا يحيى على ركبتيه مبتسمًا لهم:

--ألم أقل لكم دائمًا أن تنادوني بيحيى فقط؟

--يحيى.. أهناك درس اليوم؟

اعتاد أطفال المسجد على درس اسبوعي ليحيى في أمور الدنيا والحياة.. يعلمهم كيف يواجهون الصعاب ويتحملون المسئولية كلما تقدم بهم العمر.. التعليم في الصغر كالنقش على الحجر.. الدين يبدأ بحفظ القرآن والدنيا تأتي بالتجارب.. وكان دوره هو أن يخبرهم بتجارب الآخرين.. ربت يحيى على كتف أحدهم شاردًا ثم تركهم ودخل المسجد:

--ليس اليوم.

كان العمل السري في قرية القرنة القديمة يترأسه عمدة القرية متولي زيدان والمأمور المسئول عن قرة قول الشرطة في مدخل القرية البكباشي "منصور المليجي"..

امتلك العمدة أكثر من نصف أراضي القرية والمأمور النصف الأخر واصبح الأهالي إما يعملون في أراضيهما مقابل قليل من المال أو يعملون في تنقيب الآثار ونبش القبور.. لم يقو أحد منهم على الاعتراض أو الخروج عن الناموس العام الذي رسمه الاثنين لتلك المنطقة..

هما من يديران كل شيء ويتواصلان مع البعثات الأجنبية لبيع الآثار وتوزيع الفُتات على بعض الأهالي العاملين تحت آمرتهم.. بل أن بعض هؤلاء الأجانب عرضوا عليهما شراء جميع الأراضي التي يملكاها ليحولوا القرية بأكملها لفندق سياحي ضخم ولكنهما اعترضا ورفضا عرضهم المغري واصبح مشروعهم في طي النسيان فللسلطة شهوة لن يسلاها من هو مثل متولي زيدان ومنصور المليجي.. لم يكن المال فقط هو ما يحركهما ويدفعهما لذلك بل داء السيطرة وادمان السلطة المطلقة، وعرش من ذهب متجدد لن يقو أحد على ازاحتهما عنه مهما كان.. لم يعكر صفوهما غير ذلك الضابط المنتدب من القاهرة لمراقبة تجارة الآثار في قريتهم.. اليوزباشي أحمد عز العرب.. المتخرج من مدرسة البوليس في القاهرة.. شاب حاد الطباع قصير القامة.. قد غزا الصلع رأسه مبكرًا.. بقدومه تعَّثر كل شيء وأمر العمدة رجاله بالتوقف عن التنقيب السري مؤقتًا.

منذ أكثر من شهر والنبش متوقف تمامًا بعد هذه الحادثة الأخيرة التي كانت سببًا رئيسيًا في قدوم أحمد عز العرب منتدبًا من القاهرة.

تلك المقبرة الاستثنائية في صحراء قريبة من وادي الملوك وخارج منطقة تنقيب البعثة الأجنبية والتي عثر رجال العمدة فيها على مومياء جديدة.

كانت ليلة ظلماء كسائر لياليهم.. ما إن عثروا على مدخل تلك المقبرة العجيبة بطرقهم الخاصة حتى رقصت قلوبهم فرحًا فهم على وشك جني بعض المال يكفيهم لشهرين أو أكثر.

فتحوا باب المقبرة لأعلى ونفضوا ترابًا دام لآلاف السنين وخطت أقدامهم لأسفل هابطين درجات رخامية تقودهم لأكثر من عشرين مترًا أسفل الأرض.. أمسك أحدهم شعلة في يديه وأحكموا اللثام على وجوههم فالقاعدة الأولى لإقتحام مقابر القدماء أن تُفتح لبعض الوقت لتجديد الهواء والنزول في حذر محكمي اللثام وهكذا يتقون أي غازات سامة قد تنتج عبر القرون والأزمان في أماكن مغلقة على توابيت وموتى كتلك.

وقف خمسة عشر رجلًا يتفحصون محتويات المقبرة بخيبة أمل فلم يكن هناك سوى مومياء ملتفة بلفافات الكتان وفارغة من أي ذهب أو فضة في صحبتها..

--مقبرة عمال!

قالها أحدهم بحسرة فالمقابل المادي لهم بخث للغاية في هذه الحال.

لاحظ أحدهم صورة منحوتة على جدران المقبرة.. اقترب منها ممسكًا الشعلة.. تحسسها.. إنها لفتاة رائعة الجمال.. رسم بارع بألوان زيتية براقة وكأنها رُسمت للتو.. اقترب أخر من المومياء ونزع غطاء الرأس عنها..

--مومياء فتاة!

قالها متعجبًا فتلك المرة الأولى التي يعثرون فيها على مومياء لفتاة غير ملكية.. مالت رأسها فجأة لليسار وكأنها حية تنظر لهم بفجوتي عينيها الغائرتين.

في نفس اللحظة أُغلق باب المقبرة العلوي من دون سبب.. وسقطت الشعلة من يد أحدهم وانطفأت وساد الظلام.. وعلا صراخهم المتداخل.. كان الخفراء يقفون في الخارج يؤمنون المكان.. حاولوا فتح باب المقبرة من دون جدوى.. تعالت الصرخات أكثر وأكثر.. زاد الهلع إلى منتهاه.. ثم سكنت الأصوات فجأة.. نظر أحد الخفراء لزميله في خوف وترقب.. إنها المرة الأولى التي يقابلون فيها شيئًا كهذا:

--لا تتحركوا من هنا.. سأُبلغ العمدة.

وما أن علم العمدة حتى ركض إلى هناك وقام خفراءه بفتح المقبرة في حذر شديد ودخلوا لهناك حاملين شعلة أخرى من النيران.. وما أن خطت أقدامهم إلى الداخل حتى رآوا ما يُخلع له القلوب هلعًا ورعبًا.. خمسة عشر رجلًا صرعى على الأرض فاتحي الأفواه وكأنهم ماتوا صارخين هلعين.. مبرقي الأعين وتلك المومياء في مكانها ملتفة في الكتان ورائحة الموت يملأ المكان.. أمر العمدة رجاله بحمل أولئك الموتى في سواد الليل إلى بيوتهم ليأتي صباح جنائزي مغلف بالأحزان وصرخات النساء وبكاء الأطفال في خمسة عشر بيتًا غاب عائلهم.

لم يقو نسائهم على البوح بشيء مما حدث ونفذوا أوامر العمدة عائلهم الجديد كما وعد.

وكُتبت التقارير بموت طبيعي جماعي.. لكن السلطات أرسلت ضابطها الهمام أحمد عز العرب للتحقيق في تلك الحادثة.. كانت التقارير الأمنية السرية ترصد نشاطًا مريبًا لتجارة الآثار وتهريبها خارج البلاد.. وقرية القرنة كانت على رأس القائمة.

في اليوم التالي لظهور عز العرب في القرنة سقط لص امسك به إمام المسجد واقتاده الناس لقرة قول القرية.. طلب يومها من المأمور ترك ذلك اللص له ليحقق معه..

اشعل سيجارته ونفث دخانها في وجهه:

--ما اسمك؟

أهالي القرية يقولون أنك غريب عن هنا.. أليس كذلك؟

لم ينطق اللص بأي شيء ولازم الصمت واشاح بوجهه عن عز العرب المقترب منه وكأنه يهمس له:

--تسرق مسجد..

إنها جريمة كبرى..

قد تُسجن بسببها سنوات..

ولكنني أرى لك مصيرًا أخر..

أراك في جلبابٍ أبيض طاهر..

تقف وراء المصلين الذين بادرت بسرقتهم اليوم..

ودموعك تسقط على خديك تائبًا.. أليس هذا أفضل؟

اجبني.. أليس هذا أفضل؟

قالها صارخًا في وجهه في حدة متناهية.. لم تغرب الشمس حتى خرج ذلك اللص مقطوع اليدين أمام من قاموا بتسليمه لقرة قول البوليس.. خرج عز العرب خلفه ليحدث أهالى القرية المجتمع بعضهم هناك..

--لقد اختار ذلك اللص التوبة.. فهل تقبلونه تائبًا؟؟

ساد الصمت بينهم.. ينظرون إلى الدماء المتساقطة من يديه المقطوعتين غير مصدقين ما فعله اليوزباشي الصغير.. القى هذا الموقف الرعب في نفوس الأهالي والعمدة والمأمور على حد سواء.. ورحل الرجل ولم يظهر بعدها ثانية في قريتهم ولم يخلف وراءه غير القصص والأساطير عن الضابط الجديد وبات مثارًا لنميمة الأهالي.

--إننا لسنا قضاة لنصدر أحكامًا على المجرمين.

قالها البكباشي منصور في مناقشة دارت مع عز العرب بعد ذلك الموقف.

--لقد رضى بحكمي واختار التوبة.

--ولكن..

--سيادة البكباشي.. لدينا أعمال كثيرة أتيت من أجلها..

فهل تساعدني في انجازها؟

التزم منصور الصمت متوخيًا الحذر من ذلك الثعلب الجديد.. فكر كثيرًا والعمدة في استغلال تلك الحادثة وارسال شكوى لنظارة الداخلية في حق أحمد عز العرب ولكنهما تراجعا حتى ينتهي من فترة انتدابه ويرحل.. بل نصحه العمدة بالكف عن مواعدة النساء في بيته على اطراف القرية حتى لا يتخذ عز العرب ذلك ذريعة للإطاحة به ويجد نفسه متهمًا بين عشية وضحاها بقضية زنا.. منصور المليجي رجلًا وحيدًا ماتت زوجته من دون أن تنجب له وربما يكون أخر رجال عائلته فليس له أقرباء يعرفهم وكانت أحضان بعض نسوة القرية ممن يخضع رجالهن للعمل في التنقيب السري عن الآثار تحت آمرتهما ملاذًا له وإن كان يملؤها عبق عرق الفقر والذل.

لم يكن يحيى بركات مثلهم.. غرس والده القعيد بذور الشرف والصلاح في نفسه..

نما في بيت وحيد يخرج عن ناموس تلك القرية.. بيت لا يتاجر قاطنوه في أجساد أجدادهم..

هكذا علمه عبد النور بركات.. علمه القراءة والاطلاع.. في غرفته الصغيرة ذات الأرض الأسمنتية وجدران من الطوب اللبن وتحت لفافة البصل المعلق مجموعة من الكتب والجرائد التي أهداها له والده واحدًا تلو الأخر.. العدد الأول من جريدة الوقائع المصرية باللغة العربية بدلًا من التركية وما تلاها من أعداد تجدها بجوار سريره.

قرأ يحيى كتبًا عديدة عن التاريخ القديم وافتتن بالمعابد وآثار القدماء.. بل أنه كان زائرًا مستديمًا لها.. وهناك تعرف على صديقه الامريكي الذي يتحدث العربية بطلاقة "جورج" ولطالما لازمه في أماكن عمل البعثة الاجنبية في وادي الملوك وبهرته اكتشافاتهم.. كان يقف مذهولًا أمام جدران تلك المقابر المُعلنة وجمال نقوشاتها وزخرفتها البارزة.. بل أنه تعلم اللغة الهيروغليفية من صديقه خلال عام كامل.. لم يتركه إلا وهو قادر على قراءة تلك الرسوم المكونة للغة على جدران المعابد والمقابر.. كم كان يحيى فخورًا بنفسه! حتى أنه رسم عبارة بالهيلوغريفية على جدار غرفته في البيت..

"العلم منجاة الشعوب.. البقاء للعلم"

كان والده فخورًا به للغاية.. ولطالما اختلى به في هذه الغرفة ليسقيه مباديء ولت واصبحت أكثر غربة في هذه القرية.. تجارة الآثار محرمة دينيًا.. هذا هو الأهم عند عبد النور بركات.. لا يهمه التجريم الحكومي.

--للموت حرمة لا ينبشها إلا السحرة والفُجَّار.

جاء عبد النور بركات نازحًا من بلادٍ بعيدة.. نشأ وحفظ القرآن في نفس بلدة رفاعة رافع الطهطاوي ولكن والده ترك قريتهم القديمة وجاء للقرنة بعدما اشترى قطعة صغيرة من الأرض ليبدأ حياته الجديدة بهذه القرية.

--المصري الحق لو اتيحت له الظروف ونال القدر الكاف من العلم سيقود الأمة.

قالها لولده مرارًا وتكرارًا محاولًا دفعه لتكملة تعليمه بعيدًا عن هذه القرية ولكن في كل مرة يرفض يحيى بشدة..

--لن أترككم يا والدي.. إنني أقود تلك العائلة ولن ابرح حتى يصل اخوتي لبر الأمان .

ثلاثة بنات أوسطهن على وشك الزواج.. وعمل يحيى هو المصدر الوحيد لرزقهم بعد استيلاء العمدة على أراضي الجميع بأثمان بخسة..

--يا بني.. أني أخاف عليك من هذه القرية وأهلها.

--إنهم أهلنا يا والدي.

--لقد استشرى الحرام بين أوصالهم واصبح كالطاعون لا علاج له.

--أتقصد تجارة الآثار؟

--نعم.

--مازال هناك البعض يقاوم.. وأنا لهم بالعضد والسند وناصحًا لمن أذنب وتولى.

كان يحيى محبوبًا يتقبله الناس.. يجالسهم في ساحات القرية ويلتفون حوله يستمعون لعزفه على الناي في المواسم والأعياد.. وكم من مرات اجتمع ببعضهم بعد صلاة الجمعة في مسجد القرية الوحيد القريب من النيل ! كان ينصح بالحسنى ويروي القصص والأحاديث بذكاء.

ولكن الحاجة واعتياد الذنوب وتحليل المحرمات جعلت كل مساعيه تذهب سُدّى..

--إن النفس تهوى الخطايا ولن تهدأ حتى تسقط الروح في بئر لا قرار له ولا منجاة.

قالها عبد النور بركات لولده حزينًا على أوضاع بني قريته..

--الصبر يا أبي.. الصبر.

--أخاف الهلاك يا بني.. اخاف غضب الله.

--أنهلك وفينا الصالحون؟

--نعم.. إن كَثُر الخبث.. فلنرحل من هنا يا بني ونبدأ حياة جديدة في أرض صالحة.

--لن أقو على الرحيل يا أبي.. ليس الآن.

--أعرف السبب.

قالها الأب مبتسمًا فملأت ابتسامة الخجل وجه يحيى وابتعد بعينيه مُلتقطًا ذلك الناي الملازم له وبدأ العزف..

تعلم يحيى عزف الناي من والده وكم من ليال مرت والعائلة تجتمع على عزفه والابتسامة تملأ وجوههم والرضا يحاوط قلوبهم أجمعين.. كان يحيى متزوجًا من ابنة عمه زواجًا تقليديًا انتهى سريعًا بموتها خلال ولادتها لابنه الصغير.. محمد يحيى بركات.. طفل ذا الخمس سنوات.. تربى على نفس المباديء والقيم التي غرسها رب ذلك البيت.. حرص يحيى على تعليمه القرآن الكريم بنفسه.. ونما برعاية عمته الكبرى" حورية" ذات الخمس وعشرين ربيعًا ولم تتزوج حتى اللحظة بالرغم من جمالها الشديد.. فاضحت حورية والدته التي لا يعرف غير أحضانها وحنانها بديلةً لأمه التي غادرت الدنيا بوصوله.

كان يحيى يصطحبه كثيرًا لغيَّة الحمام فوق سطح بيتهم الصغير.. تلك الغرفة الخشبية الصغيرة التي طالما قضى فيها خلواته بمفرده يناجيها ويشكو لها همومه..

--تعال يا حبيبي.. أترى ذلك الحمام في السماء؟ انظر كيف يحلق بعيدًا.

يصفر يحيى له فيجتمع من كل الأنحاء ليعود فوق غيَّته وطفله منبهرًا بذلك..

--هيا لتعاود أنت الكره.. قم بالصفير مثلي.

حاول الطفل تقليد والده من دون جدوى.. ضحك يحيى واحتضنه بحنان منقطع النظير..

--تعال لأخبرك بأسماء تلك النجوم في السماء.

كان يحيى شغوفًا بالنجوم وبات لياليه يتابعها شاردًا بها بل أنه يحفظ تكوينها المتغير فوق بيوت قريته ويطلق عليهم أسماءه الخاصة.

--ذلك النجم الكبير هناك.. أتراه؟ اسميه خوفو.. نجم خوفو.

انه يقع في غرب بيتنا دائمًا وقلما يغيب..

احب يحيى سطوح بيته كثيرًا وكان يبيت في غيَّة الحمام أحيانًا في ليالِ الصيف الحارة.. عشق هديرها وارتاحت نفسه لرائحتها الممتزجة.. كان يصحو قبيل الفجر يحادثهم..

--أتعلمون كم أحبُّها؟ تلك الفاتنة الساحرة.. ذات العينين الخالبتين..

أتدركون معنى قربها؟ والسهد والوجد والعشق قرينها..

أشتاق للقاء قبل البشر.. في جنة الله كأننا أول العاشقين..

آدم وحواء الدنيا وجنتها.. أقسم على البقاء من دون تفاحة..

يكفيني الدفيء في قربها.. يكفيني أحضان روحها.

أحبُّها وأعشق قربها.. أحبُّها.

كانوا أول من أفصح لهم بحبه قبل الجميع.. أول من لمسوا لهيب عشقه المستعر.. أول المباركين لعلاقة بدت مستحيلة.. شاب أرمل حاربه الفقر لسنوات وبالكاد يكفي عائلته من عائد نقل الفاكهة وفتاة ولدت في اناء من ذهب.. لكن القلوب لا تعرف المستحيل.. قد تجبر اصحابها على ما لا يتخيله عقل ولا يخطر في بال.. ورغم العناد والمقاومة صارا أعظم حبيبين وطأت أقدامهما تلك القرية.. ربحت سهام العشق جولاتها بقصة حب لا تقارن.. وباتت أرواحهما أسيرة لقاء مُنتظر.. واضحت الأمنية الوحيدة.. الزواج.

--الحبّ هو أصل الأشياء.. لا مال ولا جاه ولا سلطان.

وفي ليلة قريبة.. اتخذ يحيى قرارًا بالبوح في جلسة معتادة مع عائلته الكريمة..

كان عبد النور بركات هذه الليلة يقص لهم ما يعرفه عن ابن بلدته رفاعة الطهطاوي مُستهلًا بقصيدة ألقاها الأخير في باريس حبًا في مصر:

-- ناحّ الحمامُ على غصونِ البانِ ... فأباحَ شيمةَ مُغرمٍ ولهان

وكأنه يُلقى إليّ إشارةً ... كيف اصطباري مُذ نأي خِلاني

ولئن حلفتُ بأن مصرَ لجنَّةٌ ... وقطوفها للفائزين دواني

والنيلُ كوثرها الشهيُّ شرابه ... لأبرُّ كل البر في أيمانِي

لم يفهمه غير يحيى ولده المثقف الذي يفخر به رغم كل الآسى.. ابتسم الأب والأم تضع أمامهم صحون من البليلة الساخنة وتجلس لتستمع لحديثه الدافيء:

--رفاعة رافع الطهطاوي من قرية جرجا في سوهاج.. حفظ القرآن الكريم والتحق بالأزهر،

نقل بعدها للجيش المصري إمامًا لأحد الفرق..

سافر في أول بعثة إلى فرنسا عام 1826.. اختاره محمد علي بنفسه..

كان يؤمهم في الصلاة.. درس هناك اللغة الفرنسية والتاريخ والفلسفه والأداب..

كل تلك العلوم باللغة الفرنسية وقرأ لكبار الكتاب هناك.. عاد بعد ست سنوات ومعه

كم كبير من كتب قام بترجمتها واصبح رائدًا للعلم.. رسم لبني وطنه معالم الطريق..

اقترح على "محمد علي" إنشاء مدرسة الألسن.. مدرسة تُدِّرس اللغة العربية ولغات أخرى..

فرد من أقاصي الصعيد قاد أمة.. لقد قابلته شيخًا في أواخر حياته رحمة الله عليه..

كم تمنيت أن أسلك طريقه ولكن الدنيا اختارت لي أن اعيش عاجزًا بلا قيمة.

قالها والدموع تملأ عينيه فاحتضنه يحيى وقبَّل يديه:
--من قال ذلك يا أبي؟ يكفي أنك ربيتنا على القيم والأخلاق والمباديء..

نحبك يا أبي.. نحبك.

وارتموا جميعًا في احضانه الدافئة.. وقف يحيى بعدها مترددًا ونظر إلى الجميع قبل أن ينطقها:

--لقد قررت الزواج من زينة ابنة العمدة.

ساد الصمت للحظات وصراع بين الفقر والثراء ينهش صدورهم غير قادرين على البوح حفاظًا على مشاعر يحيى.

لكن والده يراه ذا قيمة كبيرة .. لم يتردد للذهاب معه بأحسن الثياب والتقدم لها بعد أن اقسَّم يحيى لهم بأن زينة لا تمت إلى العمدة بصلة، وأنه يخطط للرحيل بعيدًا عن القرية في صحبتهم وطفله الوحيد ليبدأوا جميعًا حياة جديدة.

وكانت النتيجة معروفة مُسبقًا.. قام العمدة بطردهما شر طردة وتأزمت الأمور إلى أقصاها وحُرِّم عليه العمل في نقل الفاكهة بعدما أصدر العمدة أوامره بذلك ولم يبق أمام يحيى إلا الرحيل.. هكذا هدَّدهم العمدة على لسان ابنه العائد من سفر منذ أيام.. موافي متولي زيدان.

شاب في نفس عمر يحيى.. يتذكره مراهقًا مدللًا يصطاد طيوره ويقتلها ببندقيته البغيضة..

كم من المرات بات يحيى حزينًا والقهر يملأ قلبه الصغير! فقد أخبره والده أن يبتعد عن العمدة وولده وأنه لا يستطيع حتى رفع شكواه إليه وإن وصل الأمر ألا يربي حمامًا فوق السطح.

--يا ولدي ابتعد عن الشر ماحييت.

--أنحن حقًا ضعفاء يا أبي؟

--فقراء يا بني.. ولكننا قد ننتصر بالعلم والمعرفة.. بالعمل الشاق

وبناء الأرواح.. فبناء الروح يا ولدي أهم وأقوى من بناء البيوت والأموال.

لكن المرض باغته ليكون اضافة لضعفهم.. فبات العلم بعيد المنال.. عوضّه يحيى بتلك الكتب المهداة من والده على مدار عمره.. فاضحى منارة عائلته ومصدر للقوة والبهاء وإن كان بعيني والده فقط.

--ثلاثة أيام على الأكثر وترحلون من القرية.. لا مكان لكم هنا..

ولا عودة تحت أي ظرف.

قالها موافي ابن العمدة والغضب يملأ وجهه بعدما حُكِيَّ له عن رغبة ذلك الصعلوك في الالتحاق بموكب أسياده والزواج من أخته.

جالت عينيه في بيتهم البسيط بتعالي واستحقار واضحين.. سقطت سهام عينيه على اخته الكبرى حورية وافتتن بجمالها الآخاذ.. دقق في تفاصيل جسدها المختبئة خلف عبائتها السمراء.. نظر لها والشهوة في عينيه تصارحهم بالبغاء.. اعترض يحيى سهامه الدنيئة ووقف مواجهًا له بغضبٍ متبادل:

--ألم تخبرنا برسالة العمدة؟ تفضل.. أنت غير مرحب بك هنا.

قالها مشيرًا له بيده للخروج.. ابتسم موافي ساخرًا:

--أيطرد العبد أسياده ذلك الزمان؟

--كلنا عبيد الله.. "فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ"

أموالك وسلطان والدك وجاهه زبد لن يمكث.. إلى فناء قريب أيها المتغطرس.

احتدم الوضع بين الاثنين.. ذلك الطارد وخفراء العمدة بأسلحتهم يقفون عند الباب وذلك المطرود وعائلته تقف خلفه بمن فيهم والده القعيد وكأنهم يحتمون به.

رفع موافي يده عاليًا وصفع يحيى بقوة متناهية.. لم يجد غير ذلك ردًا على ذلك الفلاح اللعين بالنسبة له.. لم يتمالك يحيى اعصابه وانقض على موافي ليضربه وسط صراخ اخوته ووالدته ونداءات ابيه:

--اتركه يا يحيى.. اتركه يا بني.

لم يكف إلا بعد أن اطلق أحد الخفراء رصاصة في الهواء فسكن مكانه.. وترك موافي الذي ضبط ملابسه الغالية ثم نظر ليحيى بقسوة واستنكار:

--في المرة القادمة سيُقتَّل أخوتك جميعًا.. ثلاثة أيام وترحل أيها الحقير.

خرج ورجاله وتركهم في حزن لحالهم.. يلقون اللوم على يحيى ووالدهم ولكنهم لا يصرحون بذلك.. مرت الأيام سريعًا وبات الرحيل أمرا نافذًا.

توارت شمس ذلك اليوم خلف سحب كثيفة حتى غربت.. ليل بلا قمر يجرجر ساعاته الأولى فوق تلك القرية البعيدة..

لم تكن زينة كأخيها موافي متولى زيدان.. ذلك البغيض الذي عاش سنوات عديدة في القاهرة محاولًا تلقي العلم من دون جدوى.. فشل والده في تعليمه وحصوله على البكالوريا فكان دائم الرسوب وعاد مؤخرًا ليعيش معهم في القرية.. تعجب والده كثيرًا لعودته فلطالما رفض ذلك.

موافي يشرب الخمر ويهوى القمار ومطارحة النساء.. كان غصة في حلق العمدة وكلما رآه أمام عينيه زاد حنقه وحزنه على ما آل إليه أمره.. لم تفت فرصة إلا ووبخه فيها حتى صارت علاقتهما مضطربة للغاية.

ابنه الوحيد الوارث لكل شيء من بعده سكيرًا مستهترًا لا يتحمل أدنى مسئولية تُذكر.

لم يعلم موافي وزينة شيئًا عن أعمال والدهما الخفية بالرغم من شك العمدة أن زينة تعرف ولكنها لم تصارحه بذلك.. نظراتها ممتلئة بالمقت والنكران والنفور.. إنها تكرهه وتتمنى موته.. قالتها في وجهه صراحةً حينما رفض يحيى وطرده ووالده من داره:

--إنني أكرهك.. والموت أحبُّ إليَّ من العيش في جوارك.

كانت العلاقة بينهما متوترة دائمًا.. زينة تُذكره بأمها.. بتلك القصة القديمة التي تعذبه طوال عمره.. الأم الهاربة التي غافلته وهربت مع أحد الفلاحين بعد علاقة آثمة بينهما وتركت وراءها طفلين.. عثروا عليها مذبوحة وعشيقها في قرية بعيدة وقُيِّدت القضية ضد مجهول.

دفن العمدة قصته مع الزمن وأخفى كل شيء عن أولاده ولكن زينة تُذكره بها.. نفس عينيها..

جسدها.. لفتاتها.. وكأنها مازالت على قيد الحياة.. كان يضربها بقسوة متناهية من دون سبب.. تصارعت في داخله مشاعر الانتقام والحب فصار مسخًا لأب تتمنى ابنته موته لتتخلص من عذابها في وجوده.. لطالما قضت ليالِ تتألم من أثار سوطه على جسدها الرقيق.

ثم يأتي بعدها ليعتذر لها عن قسوته ثم يعاود الكره مرارًا وتكرارًا وكأنه يتبدَّل.

يحيى بالنسبة لها كان المُخلِّص من ذلك العذاب ومن بيت ساكنه الشيطان.

ملاكٌ سجين قد أقسم سجّانه على عذابها ما دام على قيد الحياة.

نُصبَّت الأفراح أمام دار العمدة متولي.. بعدما سقط عز العرب في حب زينة من الوهلة الأولى.. فتاة جمالها لا يقاوم.. سحر عجيب يسلب العقول ويسرق القلوب وعينان تجبرانك على الركض وراءهما طوال عمرك لتحظى بنظرة خلالهما تكون الحياة.. زينة.. زينة الحياة الدنيا ومتعة الجنة على الأرض.. كان لها عبقًا آسر حواسه وخدَّر أوصاله.

من دون أن يدري وجد نفسه أسيرًا لهواها وسجينًا لعشقٍ لم يكن في الحسبان.

إنه الحبُّ يكسر أبواب قلبه بغتة مهما أحكم غلقها.. بسهامٍ خفية لروح كُتب له السقوط في بحورعشقها.

وإن كان بين جنباته أقسى الأفئدة وأشدها تعنتًا.. كم من قساةٍ متيمين! وعلى أعتاب الجنون في حضرة معشوقينهم.

--اليوم حفل زواج ابنة العمدة زينة على الضابط المشاكس أحمد عز العرب.

هكذا انتشر الخبر في كل القرية واجتمع الناس يهللون ويتراقصون على أنغام الموسيقى الصعيدية وتلاعبت الأضواء..

وجدها العمدة وشريكه فرصة عظيمة لكسب عز العرب والعودة لممارسة نشاطهما المشبوه المتوقف بسبب وجوده.

عشق عز العرب طلتَّها بالرغم من أنه لم يتحدث إليها غير مرة واحدة ولم يفاتحها في أي شيء ولكن العمدة أخبره بموافقتها وحدد موعك الزفاف سريعًا على أن يقيما معه بالدار ووافق عز العرب على ذلك مؤقتًا حتى عودته للقاهرة لترافقه إلى هناك.. اضحت زينة بالنسبة له كنز ثمين يتمنى الظفر به مدى الحياة.

--اليوم الموعود.

هكذا اطلقا عليها الحبيبان يحيى وزينة بعدما اتفقا على الهروب ورتبا كل شيء عن طريق زوج اخته الوسطى المرتقب والذي كان يعمل في طاقم الخدم في دار العمدة ونجح في توصيل خطابات بين الطرفين أثناء فترة الحصار الذي فرضه العمدة عليها بعد طرده ليحيى واعلان الحرب عليه.

تظاهرت زينة بالموافقة على عز العرب وانطلقت الزغاريد تغزو فضاء القرية في هذه الليلة.

استعدت عائلة يحيى للرحيل حازمين القليل من الأمتعة وانتظروا ابنهم ليعلن موعد الإنطلاق.

خرج يحيى من الصباح ولم يعُد.

لم يدرك الجميع أنهم على موعد مع اللعنات.. لم يفطن أهالي قرية القرنة القديمة إلى تلك الرسائل المتتالية في الفترة الأخيرة من موكب اللعنة الكبرى.. دُقت الطبول ونُفخ في السور لتعلن قيامتهم الأولى.. وانفتح بابًا من الجحيم صريره يصم الآذان ولكن ضُرِب على أذانهم فهم لا يفقهون.. يتراقصون رقصة الوداع على أنغام المزمار كأفعى لدغت نفسها بنفسها وسُمَّها ينتشر رويدًا رويدًا تحت الأنوار المتلاعبة.

رجال يمارسون التحطيب ونساء تحملن أطفالهن فوق أكتافهن ليتمتعوا بعرض الخيول المتراقصة.

أحدهم يمسك ربابة ويغني ليخبرهم قصة الحب المستحيل.. آدم الباحث عن حواء في كل مكان وحين.. وشيطان رجيم يهوى الفراق والرحيل.. ظن أنه المنتصر على آدم وزوجته.. الناجح في البعاد والتمكين.. بل كان على موعد مع اللعنة آبد الدهر.

ثلاثة في مهب رياح القدر.. والدهر يعلن جولته الأخيرة.

يحيى في تلك الصحراء البعيدة عن القرية مُلقى على وجهه بعد ضرب مبرح من رجال موافي اللعين.. كانوا يتتبعونه بعد خروجه من المسجد في الظهيرة وقاموا باصطحابه في سيارة تجرها الخيول إلى مكان بعيد عن الأنظار.. جردوه من ملابسه وتناوبوا على تعذيبه بسياطهم الغليظة.. ولم يتركوه غير بعد غروب الشمس بساعات تضمن لهم فشله في الهروب.

كان موافي على علم بخطة الهروب.

ارسل من يراقب عروسة قريتهم أخته اللعينة التي تشارك ذلك الحقير أحلامًا لن تتحقق في وجوده.. تركت غرفتها في بيت العمدة وخدعت الجميع باستعدادها للزفاف وارتداء فستانها الأبيض السعيد.

تلك الهاربة على أمل للقاء في زي الفلاحات ملثمة الوجه تقف عند معبد سيتي الأول كما كان الإتفاق.. تنتظر يحيى وعائلته ليبدأ الرحيل.

يشتد الصقيع في ليل استثنائي من دون أمطار.. يعلو الضباب السماء لتختفي القرية عن الأنظار.

وذلك الشيطان البغيض "موافي متولي زيدان" في بيت يحيى للمرة الثانية.. وقد كبَّل عائلته بالأوتاد والكمائم فوق أفواههم.. ترى الذعر في عيونهم أجمعين.

قد سكب رجاله الكيروسين في جميع أنحاء البيت منتظرين.

اقترب موافي من "حورية"- الأخت الكبرى- في شهوةٍ ولذة ملئت عينيه القذرتين.. اشتم عبقها اللذيذ.. صرخ والدها القعيد من خلف كمامته.. صفعه موافي فسقط على الأرض في أوتاده متألمًا يملؤه القهر والذل.. برقت عينيه من هول ما يرى.

ذلك اللعين يخلع عن ابنته ملابسها لتصير عارية كيوم ولدتها أمها.. صرخ بصوت مكتوم بكل ما اوتى من قوة وصرخت الأم وبناتها من دون مجيب.. وقف الخفراء كأصنام لا تحيد عن أوامر ربّها الوحيد.. وانقض موافي على فريسته ينهل من بحر ملذاتها الفياض.. لم يمنعه صرخاتهم ولا مقاومتها الشديدة بل خبطها على رأسها فغابت عن الوعي.. والتحم الجسدين على مرأى ومسمع من الجميع.. كان كالذئب يصدر آهاتًا كالعواء.

افاق يحيى من غيبوبته ليجد نفسه عاريًا مُكسر العظام في صحراء وضباب يخفي كل شيء حوله.. نظر حوله محاولًا تحديد الإتجاهات ولم يسعفه غير ذلك النجم البعيد "خوفو" الذي يظهر بالكاد في السماء ليرشده للطريق.. ركض يحيى في اتجاه حدده تجاه الشرق.. قلبه

يشعر بخطرٍ داهم لم يكن في الحسبان.. حبيبته تنتظره وعائلته عند المعبد القديم.. هكذا كان الإتفاق ولكنه يشعر بالهلاك.. كان يجرى بكل ما أوتى من سرعة وسط الضباب الكثيف.

في هذه اللحظات قد فرغ موافي من شهوته.. واكتشف العمدة هروب ابنته بعدما كسر باب غرفتها.. وعلم أحمد عز العرب بهروب عروسه.. أخبره العمدة بأنه متأكد أنها قد هربت مع ذلك البغيض الفلاح يحيى بركات.. لم يكن هناك وقتًا للاستفسار.. انطلق عز العرب فوق جواده ناحية البيت.

رفع موافي يده إلى رجاله إشارةً فأشعلوا النيران.. وخرج مسرعًا من بيت يحيى والنيران تتعالى في السماء.. لم تكن النار في بيت آل بركات فقط بل كانت في كل بيوت القرية بما فيهم دار العمدة وصوان حفل الزفاف وكأن بيده أعلن الجحيم في كل مكان.

كانت الإشارة إلى ذلك الخفير المُراقب لزينة أن يُطلق عليها رصاصته في الحال.. ويعود أدراجه للقرية التي أصابتها اللعنة من أوسع أبواب.

سقطت زينة ودمائها تخضب الصخور والتراب.. ارتطمت رأسها بقوة.. وابتعد موافي ورجاله عن المكان.. ووصل يحيى على حافة ألسنة الدخان والنيران.. لم يقو على الإختراق.. وقف عاجزًا، يرى الناس تصرخ وتحترق كالجرذان.. لا مفر من الموت حرقًا.. هذا ما رآه في الأفق .. وجوه النساء والأطفال والرجال تذوب ثم يسقطون جثثًا هامدة.. جحيم وقف على بابه يتفادي الموت بأعجوبة.. لم ينج من النيران شيئًا غير قرة قول البوليس والبنسيون لموقعهما البعيد نسبيًا عن بيوت القرية.

اللعنة نارٌ تتجدَّد في الخفاء منذ قديم الأزل،أبوابها موصدة لا تُفتح إلا بإيذان.. والسؤال؟

من رفع أذان الشيطان؟ من فتح الأبواب؟ من جدَّد عهدًا نهايته الفناء؟

ادرك يحيى أن عائلته قد احترقت بالكامل لا محالة.. لم يلتفت إلى تلك البندقية المُسدَّدة إلى رأسه إلا بعد لحظات.. التف والدموع تُغرق عينيه.. إنه أحمد عز العرب في جوار جواده شاهرًا بندقيته في وجهه.. لقد سقط العشيق.. لقد سقط يحيى عبد النور بركات.

النبشة الثالثة

أبواب اللعنة

(فبراير 1910 – قرية القرنة القديمة)

مُحيَّت القرية من الوجود.. وامتلئت دروبها بالجثث المتفحمة عن أخرها.. تشتَّم رائحة الرماد في كل مكان.. غُلِفت بيوتها المحترقة بالسواد.. حُرقت الجلود ودُمرت العظام وصُهر ما في البطون في سعيرٍ جماعي تهلع له الأفئدة.

صباح حزين محملًا برائحة المطر،غابت فيه الشمس تمامًا، وكأنها تخجل من الظهور على قرية الأموات.. ولمن تظهر إذاً والخواء يملأ الأرجاء؟

بات"جون انطوان" ذلك العجوز أعورالعين اليسرى وزوجته"ليندا" ليلة عصيبة في غرفتهما الصغيرة في "بنسيون وادي الملوك" أحد البنايتين الناجيتين من الحريق.. هذا المكان الخاص ببعثة التنقيب عن الآثار ويعتبره البعض منشأة انجليزية مهمتها توفير الراحة لطاقم البعثة.

كان جون وزوجته يخرجان كل يوم في المساء بعد الإنتهاء من عمله اليومي ليستنشقا هواء الريف ويتمتعا بالسكون والجمال.. كانا وحيدين لا ولد لهما ولا ونيس.. مات ولدهما الوحيد فريدريك منذ عشرين عام بعدما تلقى جون خطابًا اغتال روحه فاضحى رجلًا بلا روح تتقاذفه الأيام والليالي:

--الكوليرا قضت على فريدريك.. عُد لإستلام جثته.

لم يسافر جون وقتها بل ترك زوجته تذهب بمفردها رافضًا الإعتراف بوفاته.. مزق الخطاب وكأن شيئًا لم يكن وبعد عودتها من مراسم الدفن في بلدتهما الصغيرة سئلها:

--كيف حال فريدريك يا عزيزتي؟

لم يتجاوز جون محنته إلى الآن ولم تواجهه زوجته بالحقيقة خوفًا على قلبه المريض.. بل والأكثر من ذلك.. صارت ليندا تكتب رسائل مزيفة بخط يدها وتنسبها إلى فريدريك المتوفي وكأنه على قيد الحياة:

--أبي العزيز.. اشتاق إليك كاشتياق المهاجرون لأوطانهم..

اشتاق لأحضانك وضحكاتك وعباراتك المُفعمة بالحكمة ونصائح الصباح..

وإلى قدح ساخن من القهوة نرتشفه سويًا تحت زخات المطر..

أحبُّك واتمنى اللقاء عما قريب إن سنحت الأقدار.

كانت تلك الرسائل قبسات من الحياة المستحيلة بالنسبة إلى جون انطوان وربما كانت سببًا في بقائه حيًا إلى الآن.. تبًا لهذه الدنيا.. يُختطف الأحباء من بيننا من دون ميعاد ونبقى والعناء، والآلام تصاحبنا حتى الفناء.. إنه القدر.. عزرائيل العشق والهناء.. كم من أُناسٍ يتألمون منذ قديم الأزل! نفس المشهد يتكرر من دون انقطاع.. جثةٌ فارقت الحياة وأحبابها يتجرعون العذاب، تُعتصر قلوبهم ما تبقى لهم من العمر فراقًا وحسرة.. أما من عدلٍ في الرحيل؟ فليرحل الأحباء جميعًا في آن واحد وينتهي الفراق.. يموت الحزن والوجد والاشتياق المستحيل.. أما من مُنقذ؟ جون انطوان وليندا زوجان أرهقهما الفرقة والشقاق.

في الأمس في طريق عودتهما سمعا طلقًا ناريًا عن قرب في نفس اللحظة التي أُضرمت فيها النيران في القرية الظاهرة عن بعد.. كانا عند معبد سيتي الأول في طريقهما إلى موقع التنقيب وسط الضباب.. سمعا بعدها أنينًا يتعالى فاقتربا من مصدر الصوت في حذر.

--إنها فتاة مصابة بطلق ناري.

قالها جون بعدما رأى زينة غائبة عن الوعي تنزف دمًا.. حملاها بالكاد إلى غرفتهما في البنسيون بعدما تأكدا أن النيران بعيدة عنه تمامًا ولم تصل إليه.

وهناك وسط الإضطراب والقلق استخرج جون تلك الرصاصة من كتف زينة بسكينٍ سُخن على النار.. مازال بارعًا في تلك الاسعافات المباغتة منذ أن كان محاربًا في جيش بلاده منذ خمسين عقدًا.. تداعت الذكريات وهو منهمك في انقاذ الفتاة.. شرد بعيدًا قبل خمسة عقود والحرب على أشدها.. تلك الحرب التي خسر فيها الكثير.. حرب القرم بين الروس والدولة العثمانية.. بين المسيحيين والمسلمين كما كانوا يطلقون عليها حينها.. مازال يتذكر تلك الليلة التي أُعلن فيها اشتراك جيش بريطانيا في تلك الحرب.. مازال يتذكر تلك اللعنة التي اصابت حياته بالكامل.. ما كان عليه الاشتراك.. ما كان عليه تنفيذ الأوامر.

--كيف لدولة مسيحية مثل بريطانيا أن تحارب دولة مسيحية مثلها كروسيا بعد أن تنضم إلى خندق المسلمين؟

كان من البديهي أن تُعلن بريطانيا دعمها الكامل لروسيا في حربها على أساس الدين والعقيدة بالنسبة لجون انطوان وكثيرون أمثاله ولكن العكس هو ما حدث.

جون انطوان ذلك المسيحي المتعصب يكره العثمانيين كثيرًا ويراهم دمويين محبين للسلطة.

عامان من الحرب من دون اقتناع والنتيجة:

350 الف قتيل وعائلته بالكامل.. من حصدت الكوليرا أرواحهم في ليلة واحدة.. جون انطوان ذلك العائد المنتصر شاكرًا الله على بقاءه على قيد الحياة حتى وإن كان فاقدًا لعينه اليسرى ولكنه اعتبرها ثمنًا لتلك الحرب التي اقترف فيها ذنوبًا لا تحصى من قتل وخراب في خندق خاطيء تنفيذًا لأوامر عسكرية تربى على عدم عصيانها يدرك أن الثمن باهظًا أكبر مما يتخيل في هذه الليلة.. أمه واخوته الخمس جميعهم صَرْعَى على الأرض جاحظي العيون وقد فارقوا الحياة.. صدمة عمر أدخلته في نفق مظلم من الآلام لا نهاية له.. تقدم باستقالته من

الجيش البريطاني وابتعد وحيدًا حتى قابل ليندا تلك الحسناء ذات العينين الخضراوتين.. من وقفت في جواره ومنحته الحب والحنان من دون حدود.. خرج من هذه التجربة القاسية ببغضٍ لا يُقارن للعثمانيين ورغبة في الانتقام.. هؤلاء من كانوا سببًا في الشقاق والفراق.. اولئك المتعطشين للدماء.

رمقته ليندا بابتسامة يملؤها الاعجاب:

--بلغنا من العمر أرذله ومازلت بارعًا في علاج إصابات كهذه.

--إنها الحرب يا عزيزتي.. قد تترك آثرًا لا تمحوه السنين والأزمان.

اقتربت منه وهو منهمك في تطهير جرح زينة الفاقدة للوعي.. ربتت على يده بعدما مسحت عرق جبينه:

--أحبّك.

اغرورقت عيناه بالدموع مُتذكرًا كل الأحزان:

--لقد مضى العمر في صحبتك.

بدأت زينة في استعادة وعيها.. تعالى آنينها من جديد.. اقترب منها العجوزان:

--أنتِ بخير لا تخافي.

فتحت عينيها وتطلعت في غرفتهما متألمة ثم نظرت اليهما:

--من أنتم؟

--انا جون انطوان وهذه ليندا.. نحن من أنقذناكِ.. هل تخبرينا شيئًا عما حدث لك؟

حاولت زينة التذكر من دون جدوى.. برقت عيناها وأمسكت رأسها والألم يزداد:

--أنا لا أتذكرأي شيء.

فُتِح التحقيق في حضور السيد مرتضى الدهشان وكيل نيابة الأقصر.. جلس يحيى عبد النور بركات مُحطمًا مهترىء الروح والصمت ملاذه الوحيد في غرفة البكباشي منصور المليجي أمام وكيل النيابة بعدما ستره أحد الخفراء بقميص وبنطال من ملابسه القديمة.. ارتشف مرتضى قهوته وهو يلقي عليه اسئلته الواحد تلو الأخر:

--تقدم المدعو موافي متولي زيدان ببلاغ يتهمك فيه بحرق بيوت القرية ودار العمدة لإفساد زفاف شقيقته زينة زيدان.. بالإضافة إلى تهمة قتل عمد مع سبق الإصرار والترصد لكل من العمدة متولي زيدان والبكباشي منصور المليجي فقد عُثر عليهما مصابين بطلق ناري في الرأس ومحترقين.. ما قولك فيما هو منسوب إليك؟

لم يجب يحيى، لن تُجدي محاولات وكيل النيابة في استجوابه إلى أي شيء.. لقد انتهى العمر.. هكذا يشعر يحيى.. لقد احترق مع عائلته بالأمس.. لم يبقى منه غير رفات إنسان هشيمًا تذروه الرياح.. لقد غادرت روحه بعيدًا مُعلقةً على أطراف دنيا يتمنى فناءها،

فقط ليلقى الأحبة.. لو أن الأمر بيده لأرتمى معهم في ذلك الجحيم المتأجج الّذي أودى بحياتهم أجمعين.

التفت بعينيه الزائغتين من شباك تلك الغرفة ليرى القرية المحترقة عن بكرة أبيها في الأفق..

دمار شامل كُتب عليه معايشته من دون نجاة.. ووسط الخراب والفناء وقفت تبتسم له وكأنها تربت على روحه كعادتها.. زينة زيدان.. من كانت زينة حياته ومأواها.. يراها وسط القرية في سكون ما بعد العاصفة.. سكونٌ مخيف يهلع له قلبه ويرتعد.. يستمع إلى موسيقا الناي التي طالما عزفها لها.. لا يدرى من أين يأتي ذلك الصوت ولكنه يسمعه.

سقطت دموعه لتشارك دموعها البعيدة.. يعلم أن ما يراه ترهات من وحي الخيال.. كُتبت النهاية بأبشع الأقلام على أوراق مخضبة بدمائهم المختلطة.. لم تكف السماء منذ البارحة عن البكاء بأمطارها الكثيفة لتُزيل ذلك الضباب ويتكشف حجم المأساة أمام من بقى على قيد الحياة.. رياح الكرب أطفئت قناديل الحب والحياة.. وبات العمرعبئًا لا يحتمل.

يا مالك الروح لما الإنتظار؟ امح عمرًا سيرافقه العذاب.. يا إلهي ومنجاي وعوني..

الموت بقدرك هو الهناء.. أما البقاء فوق الأطلال فألم وبأس لن يطاق..
قد هجرت الطيور عشاشها وبقى طائر وحيد ضل الطريق فارشده..

الرحمة يا الله.. الرحمة والموت لمبتغاه.

قطع شروده وكيل النيابة بحدة بعدما سئم من صمته :

--ألن تتحدث؟

غابت حينها زينة تحت الأمطار واختفى صوت الناي وبقى الصمت صاحبه وملاذه.. تنهد الوكيل وأمر كاتبه بتدوين قراره في نهاية التحقيق:

--هذا وقد أمرنا نحن مرتضى الدهشان وكيل نيابة الأقصر بحبس المتهم

يحيى عبد النور بركات خمسة عشر يومًا على ذمة التحقيق على أن تُجدد

في الميعاد وينقل إلى سجن قنا العمومي تمهيدًا لمحاكمته.

وأغلقت الأبواب على سجينهم الوحيد يحيى بركات داخل زنزانة فردية تمتليء أرضها الاسمنتية بالمياة.. غرق في ظلامٍ كالقبر رُدم لحده ليوم الدين.. وكأنه يشعر بالثرى على وجهه ويجلس القرفصاء في أحد الجوانب مُنتظرًا سؤال الملكين.. ولكنهما لن يأتيا مهما طال الانتظار.. أنه في قبر أخر،أشد عتمة وحزنًا وعذابًا مما يتمناه.

انهمرت دموعه من دون توقف.. ارتعش جسده واضحى وجهه شاحبًا كالموتى.. لم يشغله تلك التهم العديدة التي أوردها وكيل النيابة إليه.. حرق القرية بمن فيها وقتل العمدة والمأمور.. ولا ذلك الغباء المتعمد في إهمال موت عائلته بالكامل في هذا الحريق.. ولا آثار الضرب على وجهه المتورم.. فما يضير الشاه سلخها بعد ذبحها؟

سجد في منتصف زنزانته لتمتزج دموعه بمياه الأرضية داعيًا الله بالموت.. فُتح الباب ودخل أحدهم ووقف في جواره.. شعاع من الضوء يتسلل من الخارج.. أمره بلهجة حادة:

--انهض.

نهض يحيى والماء يتدفق على وجهه لينظر إلى صاحب الأمر.. إنه غريمه أحمد عز العرب ينظر إليه بعينين تملؤهما الغضب والقسوة.. خضع يحيى لأسئلته في محضر الشرطة قبل تحقيق النيابة وكانت النتيجة الصمت أيضًا.. اقترب عز العرب ناحيته وهمس له كاتمًا غيظه:

--أين زينة؟

التفت له يحيى كمن أُلقى له طوقًا للنجاة.. كمن مُنح صعقة كهربائية أخيرة فاعادت له الحياة وعاد القلب ينبض من جديد.

--لن تتمكن من الفرار.. أخبرني بمكانها.

--هل لاذت زينة بالفرار؟

دفعه عز العرب بحدة ليرتطم جسده في الحائط وقام بخنقه في عصبية:

--أكانت تحبك إلى هذا الحد؟ انطق.. أتحبّك ؟

--نعم.

قالها صارخًا.. فتركه عز العرب متنهدًا محاولًا السيطرة على نفسه:

--ولماذا وافقت على زواجنا إذاً؟

--لم توافق.. أجبرها العمدة وولده على ذلك.

اطرق برأسه للأسفل وساد الصمت بينهما كثيرًا ثم همَّ عز العرب بالخروج فناداه يحيى:

--أيها اليوزباشي.. أنا لم اقتل أحدًا.

رمقه عز العرب غير مكترثًا وأغلق الباب وخرج ليعود الظلام كما كان ولكن اضيئت شمعة يراها يحيى رغم العتمة.. زينة على قيد الحياة.. سبب يجعله يرفض الاستسلام ويغتال الصمت ويدافع عن نفسه.. اتجه للباب ليخبط عليه كثيرًا ويصرخ:

--أنا لم اقتل أحدًا.. أنا بريء.

****

"السيد ناظر الداخلية.. تحية طيبة وبعد:

مقدمه لسيادتكم اليوزباشي أحمد عز العرب القائم بأعمال قرة قول القرنة القديمة.. أرجو من جنابكم إلغاء فترة الانتداب الخاصة بضبط تجارة الآثار في المنطقة حيث أنه قد مات كل سكان القرية حرقًا على يد المتهم يحيى عبد النور بركات والذي اثبتت تحرياتنا أنه المسئول الأول عن تلك التجارة في المكان.. وعليه قد قبضنا على المتهم وحُوِل بمعرفة النيابة إلى سجن قنا العمومي وبهذا انتهت مهمتي وبرجاء قبول تحياتي.

اليوزباشي أحمد عز العرب

استعد عز العرب للعودة أدراجه بعد فترة غيرت في نفسه الكثير.. لم يعد ذلك القاسي المُتجبر الذي اعتاده الجميع.. اضحى منكسر القلب مسلوب الفؤاد.. هذه الفتاة التي سلبت تفكيره منذ رآها أول مرة زينة زيدان.. كيف لإمرأة أن تُحيل الرجل من الغلظة للين.. من الجدب لرخاء فياض من المشاعر يجتاح قلبه من مجرد بعض نظرات؟ أحبَّها.. لا ينكر ذلك أبدًا.. ولكنه خُدع.. كان عليهم مصارحته بحبها ليحيى.. للحق لا يضمن ردة فعله لذلك.. ولكن ربما تقبَّل الأمر وابتعد.. إنه الآن كالوحش الجريح ينزف دمًا من دون علاج.. الابتعاد.. لا حل غيره.. ربما تنسيه الأيام ذلك الحبّ البغيض.

كان عليه تصديق تلك العجوز الشمطاء قارئة الطالع صاحبة الرداء الأسود العتيق المهترىء.. من قابلها في القطار في رحلة قدومه إلى هذه القرية حينما اقتربت منه بابتسامتها الغامضة على وجهها الممتليء بالتجاعيد واختارته لتقرأ كفه ووافق ساخرًا منها وكأنها لُعبة وافق على التسلية بها في الطريق.. امسكت كفه براحتيها الحمراوتين الغارقتين في الحنة:

--ستطأ بقدميك فوق الجحيم، وتبارز سيوف الشياطين، وينغرس في قلبك

خنجر مسموم، ستعيش عمرًا من دون فرارْ لا جرح ينضب ولا نسيان..

قدرك لعنات، وحياتك عثرات ْودنياك أشواق بلا لقاء.

أحمد عز العرب خريج مدرسة خورينيان الآرمنية يتيم الأب والأم.. الذي تربى على يد جدته لسنوات حتى نجحت في ادخاله في الدفعة الأولى لمدرسة البوليس.. ذلك الّذي تربى على الجمود والحرمان.. وأن الرجال كالفولاذ لا تنكسر مهما كان.. قد بات عاشقًا مهجورًا ضعيفًا.

رحل وكيل النيابة عن القرية بعد انهاء مهامه من التحقيق ومعاينة مكان الجرائم وقامت الخفراء بدفن ما تبقى من رفات الأهالي في مقبرة جماعية قريبة.. واستعد موافي لتولي منصب العمدة خلفًا لوالده القتيل وتسلم أراضيه وميراثه.. لم ينج من القرية غير عشرة خفراء وقوة قرة القول المصاحبة لعز العرب الذين لا يزيدون عن ثمانية ونزلاء بنسيون وادي الملوك وموافي العمدة الجديد.

وسؤال يلح على ذهن مرتضى الدهشان وكيل النيابة:

--إن كان يحيى هو قاتل كل هؤلاء فلماذا ماتت عائلته حرقًا؟

كان عز العرب يحمل له إجابة بديهية من وجهة نظره:

--لا يُسأل المجرم عن مشاعرٍ انسانية يحملها لعائلته.

--تعتقد أن الإنسان يمكن أن يقتل عائلته ليصل لأهدافه.

--ليس بالضرورة.. ربما رفضوا الهروب.. أو عادوا لأي سبب كان وحُرقوا من دون علمه.

جلس عز العرب بمفرده ينفث دخان سيجارته وحيدًا في مكتب المأمور الراحل في قرة قول القرية.. توقفت الأمطار منذ لحظات بعد أن غرقت القرية بأكملها واصبحت المياة كالأنهار تنهمر في اتجاه النيل لتعلو مياهه عن المعتاد منذرة بفيضان محتمل.

صوت يتسرب إلى أذنيه مجهول المصدر.. موسيقا لأوبرا عايدة التي لم يستمع إليها منذ أن كان صبيًا في التاسعة من عمره.. يتذكر تلك الليلة كأنها البارحة.. ليلة العشاء الأخير في صحبه والديه.. بعد حضور عرض أوبرا عايدة بدار الأوبرا الخديوية الذي بهره موسيقاها وحكايتها التي كانت أخر كلمات والده قبل أن تنقلب بهم سيارة الخيول في النيل في ليلة ضبابية:

--تم اكتشاف مخطوطات أوبرا عايدة من قبل عالم الآثار الفرنسي "اوجست ماريتا"، والمخطوطة عبارة عن قصة من 4 صفحات، وألف موسيقاها الموسيقار الإيطالي فيردي..

وهي تجسد الصراع بين الواجب والعاطفة، تحكي عن قصة الحب التي نشأت بين الأسيرة الحبشية عايدة وراداميس قائد الجيش المصري، الذي حكم عليه ملك مصر بالإعدام بعد أن ثبت عليه محاولته للهرب مع عايدة إلى الحبشة.

--هل الحبُّ جريمة تستحق العقاب يا أبي؟

لم يُمهله القدر لإجابة ابنه حيث انقلبت السيارة وأُنقذ أحمد عز العرب بأعجوبة ليعيش يتيمًا من دون إجابة لسؤاله.. وبعد كل هذه السنين تأتيه الإجابة:

--نعم الحب جريمة يُعاقب عليها من يستجيب إلى دقات العشق ويفتح لها أبواب قلبه..

الحب لعنة تذل الرجال.

اشتعل قلب عز العرب بالكراهية.. إنه يمقت يحيى بكل ما أوتى من مشاعر.

هذه الموسيقا البعيدة يختلج لها قلبه وتذكره بماضٍ يدمى روحه.. وقف مشدوهًا واتجه ناحية شباك المكتب.. نسائم الصقيع ترتطم بوجهه وتشعره بقشعريرة تغتال سكونه.. على مدى البصر وفي ساحة القرية وسط البيوت المحترقة البعيدة يرى حشودًا من جثثٍ مُتفحمة.

تملك الرعب من نفسه ونادى على الخفراء ولم يجبه أحد.. كان وحيدًا وسط الترهات..

أما ما يراه حقيقيًا، أم من وحي خياله؟

خرج من قرة قول القرية مُسرعًا إلى هناك.. زاد من خطواته والصوت يتعالى في أذنيه.. صوت موسيقا أوبرا عايدة.. تخطى قضبان السكة الحديدية وبعدها الطريق الرملي واقتحم ساحة اللعنات.. كانوا هناك.. كل أهالي القرية مُبرقين الأعين في حشد مهيب.. يرى وجوههم المتفحمة في ضوء القمر الاستثنائي بينما عم الظلام في باقي الأرجاء.. إنهم في مكانهم لا يتحركون.. فقط الآن تمتزج أصواتهم مع الموسيقا.. آهات مخيفة.. تُخلع لها القلوب والأفئدة ويشيب لها الصغار.. وظهرت هي تتوسطهم.. تلك العجوز سيدة القطار وعلى ثغرها نفس الابتسامة المخيفة.. كانت تردد نفس كلماتها:

--ستطأ بقدميك فوق الجحيم ،وتبارز سيوف الشياطين ،وينغرس في قلبك

خنجر مسموم ،ستعيش عمرا من دون فرار ْلا جرح ينضب ولا نسيان..

قدرك لعنات، وحياتك عثرات ،ودنياك أشواق بلا لقاء.

حينئذ فُتح شباك جانبي في بطء شديد.. نظر عز العرب تجاهه فرآه.. يحيى بركات ينظر له شذرًا ثم اختفى.. اقترب عز العرب من البيت. أناس بداخله يتراقصون على أنغام موسيقا الزار الممتزجة مع الأصوات الخارجية في مزيج مريع.. مد يده وفتح الباب..

يعرف ذلك البيت جيدًا.. إنه بيت غريمه اللدود.. يحيى عبد النور بركات.

أضواء المشاعل المُعلقة في داخل البيت تتلاعب بفعل الهواء.. جدران محترقة.. دقات طبول وصليل.. وأناس محترقين يتمايلون برؤوسهم في ذهول.. حشود من رماد بالكاد تجد مكانًا لقدم.. واختفى يحيى عن أنظاره.. بحث عنه في كل مكان.. اخترق حشدهم وعيناه تبحث في وجوههم المحترقة عنه.. قد أقسم على النيل منه وإن كان في الأحلام.. وعلى مقربة منه يقف بعضهم في دائرة حول شخصان.. جاهد للوصول لهما من دون جدوى.. صوت الموسيقا يتعالى أكثر وأكثر.. يحيى في منتصف الدائرة يقف مشدوهًا.. وفتاة رائعة الجمال في رداء ابيض فضفاض وينسدل شعرها الكثيف خارجه.. أمسكت حجرًا صغيرًا ونحتت على الحائط الأسود عبارتها:

--باب الجحيم من هنا.

خطَّت بحجارتها رسمًا لخريطة لمكان ما.. الناس يتمايلون كالمجاذيب ويحيى في مكانه متعجبًا.. اقتربت الفتاة ذات الرداء الأبيض من يحيى ووقفت في مواجهته تهمس له.. تابعها عز العرب وانشغل بما تفعله.. كانت همساتها كرداء من حميم حاوطت به يحيى من دون اختيار.. سمعها يحيى ولكن عز العرب قرأ شفتيها المكتنزتين:

--النجاة بيدك أنت.. أنت فقط.

--من أنتِ؟

--أنا قدرك.. أنا معجزتك.

--كيف جئتِ بي إلى هنا؟

تلفت حوله مناديًا:

--أبي.. أبي.

--لقد مات الجميع.. لن يجيبك أحد.

--أنا..

تساقطت دموعه فقاطعته قبل أن يُكمل:

--أنت المُخلِّص من اللعنات.. أنت المُنقذ..

أشارت ناحية الرسم المنحوت على الحائط..

-- أبواب اللعنة هناك تحتاج لمن يُغلقها.

--أي لعنة؟

--أما زلت تسأل؟

تداعت على رأسه لقطات أهالي قريته وهم يحترقون وتلك النيران المتعالية ألسنتها إلى عنان السماء.. تذكر حينها كلمات تلك العجوز العرافة عند مدخل القرية:
--حريقٌ هائل وأنت مُنقذه ومُخلَّصه الوحيد..

أبواب اللعنة تحتاج لمن يغلقها وأنت وارثها..

دينٌ قديم كُتب عليك سداده.

برقت عيناه ومد يديه في عصبية بلهجة حادة:

--أتعرفين من فعل بنا ذلك؟ من أشعل النيران في بيوتنا ؟

ابتعدت إلى الخلف خطوتين واحتفظت بابتسامتها الغامضة:

--اللعنة.. بابٌ من أبواب الجحيم فُتح على مصراعيه.

--وأية لعنة أشد من موت عائلتي حرقًا وكل أهال القرية!

--إنها البداية فقط.. هناك المزيد والمزيد.

عُقد لسانه عن الكلام.. كان عز العرب قريبًا منهما خارج الدائرة يتابعهما.. تعالى صوتها فوق الموسيقا:

--إن لم يُغلق باب الجحيم بيدك فتسود اللعنات العالم أجمع..

سيحترق الناس وتتساقط لحومهم، سيأكلون بعضهم بعضًا أحياءً..

سيتمنون الموت من دون مغيث..

إنقذ العالم أيها المُخلِّص..

مازال هناك آملًا في النجاة.

--كيف؟

--العشقُ سبيل النجاة.

--مابال الموت والحرق بالعشق؟

--من عشقها قلبك.

--زينة؟

--أتحبها؟

--أنا لا أفهم شيئًا.

--سيظل المعشوق غريبًا بعيدًا حتى تزول اللعنة على أمل اللقاء..

لن تجد محبوبتك حتى تغلق أبواب اللعنات بيديك.

--هل تعنين أن ما حدث هنا في القرية مجرد بداية..

لسلسلة من اللعنات ستنتشر في العالم أجمع وتتكرر إن لم

أُغلق أنا باب تلك اللعنة ولكي أُغلقها عليّ بالبحث عن زينة

حبيبتي وفي نفس الوقت لن أجدها حتى أُغلق باب الجحيم.

--نعم.. لقد وضعك عقلك على أول الطريق.

--ولكن كيف؟ كيف؟ كيف؟

همست حينها في أذنه وكأنه سر خطير:

--احرقني.

--ماذا؟

--اللعنة والعشق طريقان لا يلتقيان.. النجاة بيدك أنت..

اغلق باب الجحيم قبل فوات الآوان.. تنجو بالعالم أجمع

وتنعم بلقاء المحبوب.. إن وجدتني احرقني.

تركته في ألغاز لا حصر لها واخترقت الدائرة لتذوب وسط حشودهم وتوجه حديثها له بصوت عالي:

--أول الخيط في طريق العشق يبدأ من هناك..

وإن وجدتني احرقني.. حينها سيتجدد اللقاء أيها المنقذ والمُخلِّص.

--انتظري.. أنا لا أفهم شيئًا.. انتظري.

--آيتُك الخيل والبيداء.

واختفت الفتاة وبقى يحيى بركات في منتصف الدائرة والناس مازالوا يتمايلون.. والتقى الغريمان عن قرب.. يحيى وعز العرب وخريطة باب الجحيم فوقهما.

تلاقت أعينهما في تحدي،وتلمس عز العرب مسدسه واستله في الحال.. رفعه تجاهه.

ثُبت الزمن للحظات.. واختلط كابوسهما سويًا.. كانا على موعد مع سعيرٍ انطلقت زبانيته في موكبٍ هائل يجتاح من يقابله بامتياز.. أحدهما منقذهم الوحيد.. منقذ البشر أجمعين.. ضغط عز العرب على زناد مسدسه واطلق رصاصاته نحو يحيى بركات فساد الصمت في الأنحاء بغتة.. وفي لحظتها اختفى كل شيء وبقى عز العرب وحيدًا مشدوهًا منكسر القلب والوجدان وسط بيت يحيى في قرية اللعنات وصوت العجوز يتردد في رأسه:

--قدرك لعنات وحياتك عثرات ودنياك أشواق بلا لقاء.

****

حان آوان الرحيل.. استعد عز العرب لترحيل مجرمه الوحيد يحيى عبد النور بركات.. وقف في صباح الثالث من فبراير عند مدخل قرة قول القرية في جوار العربة الخشبية ذات الجوادين.

اصطحب الخفراء يحيى ووضعوه داخل العربة وأغلقوا الباب بمزلاق خشبي خارجي يمنع فتحه.. وصاحبه ثلاثة خفراء بينما انطلق الرابع بالعربة في جوارعزالعرب.. القى يحيى نظرة وداع على قريته من تلك المسافات الصغيرة بين أخشاب العربة والأمطار فوقهم تنهمر من دون توقف.. كان عليهم الوصول إلى محطة قطار الأقصر ومن هناك ينقلونه تحت الحراسة المشددة إلى القطار المتجه إلى قنا ومنها إلى سجن قنا العمومي.

انطلق الجوادان يدبان حدواتهما في أرضٍ طينية تُغرقها المياه.. عشرة كيلومترات تفصلهما عن محطة الأقصر.. الصحراء على يسارهم والجبال ويمينهم طريق السكة الحديدية وبعده المزارع حتى النيل.. ابتلت ملابس يحيى تمامًا بينما ارتدى الباقون سترات بلاستيكية تحميهم من الأمطار.. ادرك يحيى أنه هالك لا محالة.. سقط في بحر من اللعنات لا مخرج منه مهما كانت الصرخات والنداءات.. يحتاج إلى معجزة ليثبت بها براءته كمعجزات الأنبياء.

تذكر ذلك الكابوس اللعين الذي راوده ليلة أمس وتلك الفتاة ذات الرداء الأبيض الفضفاض..

لم يدرك أنه وعز العرب اشتركا في نفس الكابوس.. عدوان يراودهما نفس الكابوس بتفاصيله.

نفس الفتاة والحرقى المتمايلون في الزار.. موسيقا أوبرا عايدة والآهات.. العرافة العجوز وجملة كُتبت على الحائط:

"باب الجحيم من هنا" ولعنات ممتدة وطريق للبحث عن زينة يبدأ بالألغاز أولها غلق باب جهنم هذا وحرق تلك الفتاة.. ترهات.. هكذا فسرها الأثنين.. مجرد ترهات.

اعتقد يحيى بأنه قد اصابه الجنون.

ضحك ساخرًا من سذاجة أحلامه و نظرإلى السماء وانهمرت دموعه وامتزجت مع الأمطار صارخًا بغتة بأعلى صوته:

--يارب.

رُجت السماء برعدٍ يخطف الأبصار.. كررها مرارًا وتكرارًا:

--يا الله.. يارب.

توقف الجوادين فجأة وعلت أقدامهما الأمامية احتجاجًا على تكملة الطريق..

ضربهما الخفيرالسائق بالسوط عدة مرات من دون جدوى.. قد امتنعا عن السير للحظات..

--يارب.. يارب.

امسك عز العرب السوط بدلًا منه وضربهما بقسوة.. فانطلقا في سرعة جنونية مخترقين الطريق الرملي إلى طريق القضبان.. باتت العربة فوق طريق القطار تهتز خلف الجوادين.. حاول عز العرب ومن في جواره شدّ لجامهما ليتوقفا والفشل كان حليفهما طوال تلك الدقائق التي لم يتوقف فيها يحيى من نداء ربه.. صرخ فيه عز العرب:

--اخرس أيها اللعين.

--يارب.

تأرجحت العربة يمينًا ويسارًا خلف الجوادين الطائشين حتى انقلبت على جانبها.. صرخ من فيها والعربة لا تتوقف وقد تداخلت أجسادهم في فوضى ورعب شديدين..

بعدما وقع سائق العربة واختل توازنه في الحال..

وكذلك لم يتمكن عز العرب الصمود والسيطرة عليهما فوقع هو أيضًا على جانب القضبان وتقلَّب جسده فوق الأحجار الجانبية حتى خُبطت رأسه فغاب عن الوعي بعيدًا عن قضبان القطار.. وابتعدت العربة المقلوبة يسحلها الجوادين فوق القضبان.. تخبَّط الخفراء ويحيى

وشُقت الرؤوس وسالت الدماء الممتزجة.. وفجأة انكسر الرابط بين عربتهم والجوادين وانقلبت عدة مرات فوق القضبان حتى استقرت في منتصف نفس الطريق.

فتح يحيى عينيه بعد فترة من السكون الجبري.. الخفراء غائبين عن الوعي تمامًا والدماء تملأ وجوههم أجمعين.. أوجاع لا حصر لها في جسده.. برقت عيناه لما يراه يقترب.. إنه القطار.. سيموتون حتمًا من دون شك.. خبط بيده على الباب دون مجيب.. صرخ عاليًا:

--النجدة.. الغوث.

كان مكانًا مهجورًا بين القرى ولا يمر فيه إنس ولا جان.

--الغوث.. الغوث.

القطار يقترب أكثر وأكثر.. حاول فتح الباب ولكنه أُحكم الغلق من الخارج.. حاول كسره.. الموت يقترب وستنتهي القصة في الحال.. أبشع مما كان يتخيل.. ستتمزق جثته لأشلاء.. القطار يقترب.. زاد من خبطاته بجنون.. نجح في كسر الباب وقفز بعيدًا في أخر لحظة..

قبل أن يصطدم القطار بالعربة الخشبية ويجرجرها مسافة كفيلة بموت روادها ثم انقلبت بعيدًا عن طريقه ليبتعد القطار في سرعة من دون توقف.

لم يصدق يحيى أنه نجى من تلك الموتة بأعجوبة.. بمعجزة.. سجد يحيى في مكانه في الحال وهو يبكي من هول ما عايشه للتو.. سجد لله على استجابته لدعواه..

تذكر حينها تلك الكلمات التي راودته في كابوس أمس على لسان تلك الفتاة:

--آيتُك الخيل والبيداء.

الأمر يبدو جنونًا منقطع النظير.. وكأن ما أخبرته إياه يتحقق.. الجوادين هما السبب الرئيسي لهروبه.. وها قد عاد أحدهما واقفًا ينظر إليه من دون حراك.. والآن يقف على حافة الهذيان.. أيكون ذلك الكابوس حقيقة؟ أهناك لعنة عليه بمحوها قبل أن ينتكس العالم؟ أيكون طريق البحث عن زينة زيدان مرتبطًا بحرق تلك الفتاة ذات الرداء الأبيض؟ وإن صحت تلك الترهات أين يجدها؟؟

قرر يحيى أن يتبع هواجسه.. ليقطع الشك باليقين.. أكان ما رآه رؤية أم كان كابوسًا سيفيق منه قريبًا؟.. والفيصل بين هذا وذاك.. ذلك الرسم الذي يتذكره جيدًا على حائط بيتهم.. ذلك الذي رسمته بيديها.. خريطة باب الجحيم.

****

افاق أحمد عز العرب والدماء تُغرِق رأسه والآلام تكاد تفتك به.. بحث حوله عن العربة ووجدها بعيدة على مدى البصر.. ركض سريعًا لهناك.. تحطمت العربة فوق ثلاث جثث غاب عنهم يحيى بركات.. وفي خلال ساعات.. طلب فيهم عز العرب العون من نظارة الداخلية

بقوات انتشرت في كل مكان بحثًا عن المجرم الخطير الهارب.. فتشوا القرى والنجوع، الدروب والطرقات..

وقبل ذلك بلحظات كان ذلك القطار المتجه من الأقصرإلى القاهرة.. ذلك الذي صدَّم العربة وتركها مُحطّمة خلفه.. كانت المعشوقة أحد ركابه.. زينة زيدان.. تلك التي فقدت ذاكرتها في صحبة العجوزين.. قررا السفر إلى القاهرة لبعض الوقت والابتعاد عن تلك الأجواء المُفعمة بالموت والأحزان.. فلم يعد المكان صالحًا للإسترخاء أو حتى للعمل في بعثة التنقيب مؤقتًا.

ارتشف جون انطوان قهوته وناول زينة رغيفًا من الخبز مع بعض الجبن ليقطع شرودها:

--عليكِ بالطعام لتستعيدي صحتك.

تناولته منه مبتسمةً.. واستكملت شرودها من جديد.. حاولت كثيرًا تذكر ماضيها من دون جدوى.. في الليلة الماضية استرقت السمع إلى حديثٍ جانبي بين جون انطوان وزوجته اللطيفة ليندا.. تبادلا فيه وجهات النظر حول رغبة جون في السفر:

--علينا الابتعاد عن هنا بعض الوقت.

--أحبُّ ذلك المكان كثيرًا.

--القرية احترقت بأكملها يا عزيزتي وتحتاج إلى وقت طويل لتزول آثار تلك الكارثة.

--أنت محق.. ولكن هذه الفتاة!.. يصعب عليّ تركها هنا بمفردها..

وحيدة، لا تتذكر أي شيء، ولا تعرف أهلها أو بلدها.

--من المحتمل أن يكون أهلها هلكوا مع من احترقوا في القرية.

--من الجائز.. وقد تكون من قرية أخرى.

--على أي حال لا نستطيع إبلاغ الشرطة عن حالها في الوقت الحاضر.

--نعم.. فتاة مصابة بطلق ناري على أعتاب قرية احترقت بالكامل..

مسائلة قانونية لن نتحملها.

--اقترح أن نصطحبها معنا إلى القاهرة حتى تتعافى تمامًا وربما تتذكر ماضيها.

--أؤيد ذلك بشدة.

ووافقت زينة على اقتراحهما وانطلقت معهما إلى تلك المدينة البعيدة.. القاهرة.

وعلى الجانب الآخر انطلق يحيى بركات مُخترقًا الصحراء وتلك الخريطة تتردد في ذهنه..

تسائل كثيرًا.. كيف للمرء أن يتذكر كابوسه بكل تفاصيله مثله؟

كلماتها تتداخل في عقله المضطرب:

--سيظل المعشوق غريبًا بعيدًا حتى تزول اللعنة على أمل اللقاء..

لن تجد محبوبتك حتى تُغلق أبواب اللعنات بيديك..

اغلق باب الجحيم قبل فوات الآوان.. تنجو بالعالم أجمع

وتنعم بلقاء المحبوب.

--أول الخيط في طريق العشق يبدأ من هناك..

وإن وجدتني احرقني.. حينها سيتجدد اللقاء أيها المنقذ والمُخلِّص.

خمسة أميال في طريق غير ممهد يلتف بين الجبال عبر الغرب.. بدايته المسجد.. ونهايته جبلان يسدان الطريق.. الصحراء حولك في كل مكان وجبلان يتداخلان.

وقف يحيى فوق ذلك الجواد الحكومي.. والشمس تنتصف السماء بعد هدوء الأمطار منذ ساعتين.. إنها النقطة التي رآها في كابوسه.. تلك التي رسمتها هذه الفتاة.. ترك الجواد وترجَّل حائرًا.. لا شيء سوى الصحراء تتخللها الجبال.. شعر بالخيبة وضياع الأمل الوحيد.

ياللحسرة ! خبط بقدمه الأرض غاضبًا فقد اضحى أسير ترهات من هول ما رأى.

تحسس بقدميه مكانه في الأرض.. برقت عينيه.. جثا على ركبتيه متحسسًا ذلك المكان.. مقبض معدني تحت قدميه في نفس المكان.. مد يده ليجذبه للأعلى فانفتح غطاءًا لمكان تحت الأرض.. يبدو أنها مقبرة أثرية.. تسلل ضوء الشمس إلى أسفل.. درجات رخامية يغطيها التراب.. مد قدميه مُخترقًا المجهول.. شيء ما في داخله يوقن بأنه على موعد مع النجاة.

--آيتُك الخيل والبيداء.

وهاهو قد هرب بسبب الخيل والبيداء الآن يتوسطها في مكان رسمته تلك الفتاة التي زارته في المنام.. انخفض عشرين مترًا في حذر ٍشديد حتى وصل إلى ذلك المكان المظلم ذي أرضٍ ترابية.. شعلات ملقاة على الأرض وعلبة ثقاب.. يبدو أن ذلك المكان قد أغتيل حرمته من ذي قبل.. أشغل عودًا للثقاب فأرسلت الشعلة ضيائها على المكان.. عتبة رخامية مستطيلة تتوسطه.. مد يده يتحسسها.. بقايا بعض من الكتان القديم والمهترىء.. يبدو أنها لمومياء قد سُرقت من هذه المقبرة.. جال بنظره في كل مكان ممسكًا شعلته.. برقت عيناه.. اقترب من الحائط المواجه لتلك العتبة.. صورة لفتاة رائعة الجمال وكأنها رُسمت بيد أعظم فنان.. لم يصدق مايراه..

إنها تلك الفتاة التي رآها في كابوسه.. اقترب يتحسس تفاصيلها ليتأكد.. إنها هي من دون شك.

نظر إلى الحائط خلفه ليجد تلك الرسوم الهيلوغريفية.. حاول أن يقرأها:

"ملعونٌ من يطأ بقدميه ذلك المكان.. ملعونٌ من يقترب.. ملعونٌ بلعنة تلك المومياء اللعينة"

الآن بات كل شيء واضحًا.. قد نبش أهالي القرية تحت قيادة العمدة والمأمور تلك المقبرة وباعوا مومياتها.. وبذلك فُتح باب الجحيم ونالوا لعنتها واحترقوا عن بكرة أبيهم.. حصدهم الموت جميعًا.. ويبدو أن اللعنة ستتزايد بوجود تلك المومياء حرة طليقة وقد تؤدي لفناء العالم أجمع..وعليه بالبحث عن تلك المومياء وحرقها حتى تنتهي اللعنة وحينها سيعثر على حبيبته زينة زيدان.. كُتب عليهما الفراق بسبب تلك اللعنة.

****

هطلت الأمطار بغزارة من دون أن تمنع القوات والخفراء عن البحث في كل الأرجاء عن المجرم الهارب.. لم يعثروا له على أثر.. وفي تلك المنطقة الفاصلة بين قرية القرنة القديمة والصحراء وعلى مشارف وادي الملوك.. عثروا على رجلٍ فاقد الوعي.. يبدو من مظهره أنه غريب.. ليس من سكان الجنوب.. أبلغوا عز العرب بوجوده فأسرع إلى هناك واقترب منه محاولًا افاقته.. فتح الرجل عينيه متوجعًا.. نظر حوله غير مصدقًّا أنه قد نجا..

سئله عز العرب مستفسرًا:

--من أنت وماذا جاء بك إلى هنا.

اجابه الرجل في تردد

--أنا المقدم محمد عبد الله من بوليس القاهرة.

إنه العقرب قد عبر بوابات الزمن هاربًا من لعنة اوشكت على إفناء بني البشر.. عابرًا لباب اللعنات.. بحثًا عن ذلك المنقذ المزعوم في رواية النبَّاش لذلك الروائي المعدوم.. البحث عن يحيى عبد النور بركات.. الاحتمال الأول للقضاء على تلك اللعنات.

النبشة الرابعة

(حور)

(فبراير ١٩١٠)

رُفعت رايات الألم، وأنطلقت صافرة الشجن تصمّ الأذان وتقبض الأفئدة.. وأسرع فُلك التيه بين أمواج الزمان القاسية يشق إعتلاجها.. وعلى متنها زينة زيدان فاقدةً للذاكرة على أعتاب القاهرة..

ويحيى عبد النور بركات الغارق في بحور الضنى باحثًا عن طوقٍ للنجاة يبدو مستحيلًا إلى شطآنٍ مجهولة ترشده إلى تلك المومياء الطليقة حاملة اللعنات..

وأحمد عز العرب ذلك الأسد الجريح المهزوم عشقًا بعد هروب غريمه.. وأُضيف إليهم العقرب المقدم محمد عبد الله مسافرًا عبر الأزمان من دون منطق أو تفسير.

أربعة على حافة الجحيم.. كلٌ ضلعًا رئيسيًا في مربع اللعنات.

وصل القطار إلى محطة رمسيس بعد عبوره كوبري امبابة الحديث.. وقفت زينة في صحبة العجوزين خارج المحطة في انتظار عربة الحنتور وسط ضوضاء اعتيادية يتخللها هجيج الرياح.. جالت بعينيها في ذلك المكان.. على مقربة منها اجتمعت الحمير في موقفٍ خاص لراغبي التنقل من الفقراء ومتوسطي الحال.. كل حمار يحمل لوحته المعدنية المعلقة على جانب سرجه.

شوارعٌ رمليةٌ واسعة تتخلل البيوت.. بيوت من عدة أدوار.. وأصحاب الطرابيش الحُمر يتجوَّلون.. كلٌ إلى مقصده من عمل أو قضاء مصلحة.

استقل الثلاثة عربة الحنتور وانطلقت بهم في اتجاه الأزبكية.. حي الأغنياء والأثرياء وعلية القوم في ذلك الزمان.. وصوت طّقطّقة الفرس يملأ أذنيها في ايقاع رتيب.. لم تقو زينة على تذكر أي شيء.. وكأنها وُلدت منذ يومين في ذلك المعبد البعيد على يد ذلك العجوز وزوجته.. أحزان دفينة تملأ قلبها ورغبةً في البكاء تقاومها من دون تفسير.. تابعت تلك الوجوه في شوارع العاصمة متسائلة عن قصتها بين عيونهم.. لعل أحدهم يعرفها.. ضباب كثيف يحاوط عقلها حاجبًا كل احتمال ممكن في نبش أسرار نفسها وأهلها وماضيها.

مرت في جوارهم سيارة "باكارد "على سرعة عشرين كيلومترًا في الساعة..

اشار العجوز "جون انطوان" عليها محدثًا زينة:

--هذه سيارة الخديوي عباس حلمي الثاني..

يلقبونها بعفريت يجره الشياطين.

قالها جون ضاحكًا فنظرت له زينة متعجبة واستكمل حديثه:

--هذه من أوائل السيارات التي دخلت مصر..

خرج بها الخديوي في نزهة مع صديقين من القاهرة إلى الاسكندرية..

وفي الطريق سار وسط الحقول مما اتلف المزروعات وقتل عدد كبير

من الماشية والماعز والخراف ولذلك أطلق عليها الفلاحون لقب عفريت

يجره الشياطين.

لم تكن السيارات منتشرة بعد في العاصمة فعددها لم يتجاوز مائة وعشر سيارة يمتلكها النبلاء والأغنياء بين الباكارد والمرسيدس وماركة جراف وشتيفت الألمانية..

بل كانت الحمير وعربات الحنتور هي وسائل الانتقال للعوام وبعض متيسري الحال.

مروا في جوار موكبًا من الرجال يتراقصون متزاحمين أمام عربة تجرها الخيول.. دققت زينة النظر إلى ركابه فكانت سيدة في منتصف العمر تتلألأ في زيّ راقصة يكشف أغلب نهديها وتضع على رأسها شمعدان من الفضة ويهتف حولها الرجال:

--بمبة كشر يا لوز مقشر.

--هذه بمبة كشر.. فنانة وراقصة مشهورة.

قالتها ليندا وهم يتباعدون بحنتورهم عنها.

--الرجال هنا يحبون الرقص كثيرًا.

ووصل الحنتور حي الأزبكية ذلك الحي الممتلىء بالفنادق والمنتزهات وعلى بُعد شارعين من حديقة الأزبكية.. تلك التي صُنفت مركزًا ثقافيًا ومثارًا لإعجاب الاجانب قبل المصريين..

حيث الحفلات والمناسبات فقد احتفلت الجالية الانجليزية بعيد ميلاد الملكة فيكتوريا بها بخلاف الندوات والمناسبات الفنية وحفلات عبده الحامولي وغيره من فنانين العصر.

وعلى مقربة من دار الأوبرا الخديوية وقف الحنتور أمام بيتًا من دورين يحاوطه حديقة متوسطة في شارع الجوهري المتقاطع مع شارع البوستة مؤديًا في نهايته لحديقة الأزبكية.

فتح العجوز باب بيته ودخلت زينة بعدما أضاء أنوارها ووقفت في منتصف صالته الواسعة.

بيتٌ مليئٌ بالتحف والتماثيل المنحوتة.. وحوائط تُزيّنها اللوح والأعمال الفنية النادرة.. كان بيتهما بمثابة متحفًا آثريًا فريدًا.. يتوسطه نصف عمود من الرخام وفوقه صليب ذهبي صغير.. وخزينة كبيرة في أحد الجوانب، وأثاث حديث راقي الطراز.. ابتسمت ليندا لها مربتة على كتفها:

--لا تخجلي.. إنه كبيتك.

--لن نتركك حتى تستعيدين ذاكرتك.

وضع العجوز حقيبتهما واقترب منها ناظرًا في عينيها:

--أنت تشبهين كثيرًا ولدي فريدريك.. لم أره منذ سنوات طويلة..

ولكنه يكتب لي دائمًا.

قاطعته ليندا:

--تعالِ لأريك غرفتك.

صحبتها ليندا إلى الداخل بينما وقف العجوز مغرورقة عينيه بالدموع ناظرًا إلى صورة فريدريك المعلقة على الحائط في منتصف الصالة هامسًا:

--أشتقت إلى لقائك.

جلست زينة على سريرها الجديد غارقة في دوامات التيه.. شاردة في عمرٍ طواه النسيان.. تركت طعامها كما هو لم تقربه طوال خمس ساعات تركها العجوزان لترتاح من دون فائدة.. لم تتمكن من النوم، تحاوطها آلامها النفسية قبل الجسدية.. شيء ما يُقبض قلبها وكأن سكين خفي يُدب في صدرها كل لحظة ونزيف روحها يجتاز كل الحدود من دون أسباب.

نهارٌ يذهب وشمسٌ تودع يوم جديد من حياتها المجهولة.. وبردٌ يتسرب إلى جسدها الأبيض الممشوق مع نسمات المساء الأولى.. سماء ممتلئة بالسحب وقمرغائب ينوب عنه بعض عواميد الأضاءة الجديدة في حي الأزبكية.

صوت بعيد يتسرب إلى أذنيها لرجل يغني.. اقتربت من شباك الغرفة باحثةً عن مصدر الصوت.. بيتٌ مواجه لبيتهم على الجانب الأخر وشباك يغطيه ستار شفاف يظهر ما خلفه كالظلال.. ترى ظلال رجل يتوسط مجموعة رجال يجلسون حوله في دائرة.. استرقت السمع:

--يا أيها المختار.. لمدحه ماذا أقول؟

كانوا يرددون خلفه:

--ماذا أقول لمدحه والله طهر من سفاح الجاهليه أحمدا..

ذو رأفة بالمؤمنين ورحمة..

سماك ربك في القرآن محمدا..

غناء عجيب لا تدرى نوعه ولكنها تشعر بالراحة لسماعه.. تلك التواشيح الدينية البعيدة..

كمن رمى إليها طوق نجاة استثنائي رفعها فوق أمواج عاتية من الضباب.

--نادت بك الرسل الكرام فبشرت

وملائك الرحمن خلفك سجدا

لا يحصي فضلك ناثر أو كاتب عددا

ولا الشعراء يا غوث الندى

طه صلاة الله مني سرمدا

ثم الصلاة عليك يا نجم الهدى

يا رب هب من لدنه شفاعة

واجعل كتابك حجة لي شاهدا

حب الحسين وسيلة السعداء وضيائهم

قد عم في الأرجاء سبط تفرع منه نسل المصطفى

وأضاء مصر بوجهه الوضاء حب الحسين

فهو الكريم ابن الكريم

وجده خير الآنام وسيد الشفعاء .

كانوا يتمايلون برؤوسهم وهم ينشدون خلفه.. طاقة روحية عظيمة تنبعث من خلف ذلك الستار..

قطع استماعها ذلك العجوز جون انطوان.. اغلق الشباك محاولًا ستر ضيقه بابتسامة فاترة:

--الجو بارد وأخشى عليكِ من ذلك الصقيع.. أنتِ ما زلت في حاجة للتعافي.

ابتعد الصوت قليلًا.. لطالما كره جون جاره المسلم وكثيرًا شب بينهما جدال وتناحر من طرف واحد بالأخص أن جاره كان دومًا يستقبل معاملته السيئة بلينٍ وابتسامة لا تفارق وجهه.. فكر أكثر من مرة في بيع ذلك البيت والانتقال إلى منزل أخر بعيدًا عنه ولكن قلة زياراته إلى القاهرة في الفترة الأخيرة حالت دون ذلك.. نظر جون إلى صينية الطعام الممتلئة وسئلها:

--ألم تأكلي شيئًا؟

اشارت له بالنفي متنهدة:

--حسنًا.. براحتك يا صغيرتي.

تحرك ناحية ذلك الجرامافون في أحد أركان الغرفة وأخرج احدى الاسطوانات وقام بتشغيلها فخرج صوت مقطوعة موسيقية لتشايكوفيسكي وتعالى على صوت تلك الموشحات البعيدة.

--هذه مقطوعة بعنوان بحيرة البجع.. ستشعرك بالراحة والاسترخاء كثيرًا.

تحركت زينة وجلست فوق سريرها شاردة ..جلس جون في جوارها يستمع معها إلى الموسيقا.. مرت دقائق من دون أي حديث مشترك.. قطع صمتهما جون متوددًا إليها:

--ألم تتذكري شيئًا عن ماضيكِ؟

أشارت بالنفي في حزن وشرود.. ربت على يدها مبتسمًا:

--لا عليكِ.. بعد تماثلك للشفاء سأعرضك على طبيب صديق سيساعدك.

--أشكرك.

--قريبًا سأصطحبك معنا إلى ندوة للشيخ ميخائيل منصور..

إن له قصة أريدك أن تعرفيها.

نظرت له غير مكترثة بينما استكمل هو حكايته محاولًا اخراجها من أحزانها:

--كان اسمه الأول الشيخ محمد منصور.. من مواليد جرجا في محافظة سوهاج..

تلقى علوم الدين في طفولته في مسجد قريته ثم انتقل إلى المعهد الديني..

تتلمذَّ على يدِ مُعلم صوفي.. الصوفية هي أحد مذاهب الاسلام..

مال في البداية إلى العزلة كالصوفيين ثم إلى المخالطة وإبداء رأيه في

القضايا الدينية وامضى وقتًا في كتابة الشعر والنثر للتعبير عما وصل

إليه الاسلام من وجهة نظره.. وبدأ بعدها يقرأ عن المسيحية ويعقد مناظرات مشتركة

مع القسيسين والرهبان.. حتى تفاجأ الناس بعد فترة بإعتناقه المسيحية وقدم طلبًا

إلى الكنيسة لتُعمدّه ومنذ ذلك الوقت أصبح اسمه الشيخ ميخائيل منصور.. يعقد ندوات في كنيسة الأزبكية.. رجل لطيف وعالم واسع الإطلاع ستشعرين بالراحة حينما تستمعين إليه.

عاد الصمت بينهما مرة أخرى وكأنه يحدث نفسه فقطعه مرة ثانية متسائلًا:

--هل تتذكرين أكنتِ على المسيحية أم الإسلام؟

لم تجد ردًا لسؤاله..

نظر إلى كلتا يديها فلم يجد شيئًا غير ذلك السوار الفضي حول يدها اليمني.

--يداك لا تحملان علامة المسيحية.. الصليب.. قد يختفى مع مرور الزمن..

على أي حال يقول الفيلسوف الفرنسي ديكارت رينيه

أن العقل يشبه سلة من التفاح وعليكِ أن تميزي بين الصالح والطالح منها..

عليكِ بالفرز.. اخرجي كل التفاح من السلة واستبعدي الفاسد منها..

قد منحك الرب فرصة للبدء من جديد.. باتت سلتك فارغة تمامًا يا صغيرتي..

ليتنا ننال هذه الفرصة.. لا تحزني.

قبل رأسها في حنان وفيض.. تحرك ناحية منضدة جانبية وأمسك كتابًا صغيرًا ناوله إياها..

--هذا كتابنا المقدَّس.. ستجدين في قرائته الراحة والسكينة.

اخرج من جيبه سلسلة ذهبية عُلق فيها صليبًا.. عقدها حول رقبتها وأحكم غلقها فانسابت بين نهديها وهمس لها:

--كلمة الصليب عند الهالكين جهالة.. وأمّا عندنا نحن المخلصين فهي قوة الله.

فرصة ثمينة انتهزها جون لضم فتاة مجهولة الدين إلى خندقه حتى وإن كانت تنتمي إلى خندق الأعداء متجاهلًا غياب علامة الصليب على رسغها.. بغضه للعثمانيين أضحى مرضًا استشرى في عقله المسيحي.. بات كرهًا لكل المسلمين.

قبل جبينها وخرج.. مازالت شاردة والدموع تملأ عينيها .. صوت الموسيقا مستمر حولها ممتزجًا بذلك الصوت البعيد.. تلك التواشيح..وكأنهما يتصارعان.. فتحت ذلك الكتاب من منتصفه وسقطت عيناها على سطر انسابت معه دموعها:

--تعالوا إليّ يا جميع المُتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم.

إن الإنسان كائنًا روحانيًا لا يمكنه العيش بدون إله.. كل امرىء يحتاج إلى تلك القوة الخارقة الخفية لتمنحه الأمان في كل ما يعجزه ويراوغه ويقلق فؤاده.. منذ قديم الأزل والإنسان لا يرتاح قلبه إلا في وجود كيانًا للإله على الأرض.. كلٌ وعقله واستدلالاته.. فمنهم من اتخذ الشمس والرياح، القمر والنجوم، النار ولهيبها المُستعر، الأصنام رموزًا للإله القوي الخفي حتى الأديان السماوية وكتبها.. لكن في أزمانٍ كثيرة ورثت الأديان والمعتقدات عن الأباء والأجداد من دون تفكير أو بحث.. والسؤال؟

--لو أُعلن الاختبار ووُضع الجميع في الاختيار.. لو اتخذ المرء عقله سبيلًا في البحث عن الإله.. أي الأديان يعتنق؟ بأي المعتقدات يقتنع؟

هواجس عديدة تُرهق روح زينة زيدان.. وقفت أمام مرآة تلك الغرفة الفخمة تنظر إلى نفسها شاحبة الوجه ذابلة العينين.

تأملت تلك السلسلة حول عنقها وذلك الصليب المتدلي على صدرها.. التفت مرتان.. كم تعجبها تلك الموسيقا! بحيرة البجع.. أنغامها هادئة ولكنها مليئة بالشجن.. بدأت تحرك جسدها على أنغام تلك الموسيقا.. رقصت على أوتار من الألم ودموعها لا تنضب.. تضرب بيديها فراغً ينهش روحها ويغتال ماضيها.. ظلت هكذا كثيرًا حتى غلبها النوم وأنفاسها تتعالى من الاجهاد والتعب.. خضب عرقها وسادتها بينما استمر صوت الإنشاد يناجيها عن بعد

--قد عم في الأرجاء سبط تفرع منه نسل المصطفى

وأضاء مصر بوجهه الوضاء حب الحسين.

****

ليلٌ ساكنٌ مريب في قرية القرنة القديمة وسماءٌ يختفي قمرها خلف غيوم كثيفة لا نهاية لها.. تلك الليلة الأولى منذ الحادث التي يعود فيها صوت نقيق الضفادع من جديد يغزو سكونها المريع وكأنها هجرت أماكنها وبيوتها بفعل النيران واليوم تعود بعد غياب أيام.. صقيعٌ متزايد ورياح لا تتوقف.. تكاد تخلع الرجل من مكانه وتقذفه بعيدًا من هول قوتها.

فتح العقرب عينيه من جديد بعد ساعات طويلة من الراحة تركه فيها عز العرب ليستريح في استراحته الملحقة بقرة قول القرية بعدما أخرج له العقرب نسخة من اشارته إلى نظارة الداخلية بهروب يحيى بركات.. بات ليلته حتى قبيل الفجر في احدى الغرفتين المتوسطتين الاتساع اللتين تربطهما صالة صغيرة.. سريرٌ متآكل وقليل من الأثاث القديم والمتهالك.. نظر حوله.. حوائط زيتية خضراء باهتة ومتسخة وأرض من البلاط المكسور أغلبه وضوء صغير مرتعش خارجًا من مصباح الكيروسين المعلق على الحائط.. ومنضدة خشبية صغيرة عليها صينية من الطعام يكسوها ورقة جريدة.. نهض ناحيتها وأمسك الجريدة لينظر في تاريخها بشغف.. جريدة الوقائع المصرية.. الثالث من فبراير 1910.. شغله كثيرًا ذلك الهدوء حوله.. لا بركان ولا أصوات طائرات تحلّق ولا قذائف هنا وهناك.. حتى البيوت قديمة الطراز.. اعتقد بأنه سيصل إلى قرية القرنة الجديدة ويقابل فيها كل الأزمنة مجتمعة.. لقد خاب ظنه.. وكأن الأزمنة لا تتداخل هنا في هذه البقعة من الأرض.. لكنه هنا بالفعل.. قبل زمانه بأكثر من مائة عام.. هذا دليل قاطع في التداخل.. تبًا لتلك القضية الممتلئة بالألغاز.

شعر باشتياق جارف لحبيبته فداء.. تخيل للحظات أنها في جواره تنظرإليه في حنان وعشق.. رأى وجهها المشرق يضيىء ظلام تلك الغرفة..

قفزت روحه في أحضان عينيها قبل أن تختفي ويعود السكون البشع يغزو وحدته.

قلبه يملؤه ألم الفراق والخوف على الأحباب.. لعلهم نجوا من ذلك البركان كما نجا هو.. خطر في باله فكرة قتلت روحه.. لعل قواعد تداخل الأزمنة قد تغيرت وتشرد الجميع.. كلٌ في زمان مختلف.. يبدو له أنه قد حُبس في أوائل القرن العشرين.. قد لا يتمكن من رؤية فداء مجددًا ووالدته.. أو ربما يعود ولا يجدهما.. أيبحث عنهما في تاريخ ولى ومضى؟؟ ربما هناك حكمة وراء ذلك.. عليه المضي في هذا الطريق المجهول إلى النهاية.

ترك الجريدة وهَمَّ في الخروج من تلك الغرفة بعدما سمع صوت بكاء طفل في الخارج.. قابله عز العرب على بابها مبتسمًا:

--حمدًا لله على سلامتك.

--أشكرك.

--هل لنا أن نتحدث قليلًا؟

--بكل تأكيد.

كان العقرب يعرفه جيدًا.. مازالت صورة عز العرب القديمة مع جده والد والده في ذاكرته.. ذلك القصير اصلع الرأس الواقف أمامه هو جده الأكبر.. أول من التحق بنظارة الداخلية من عائلته.. من منحهم الشرف والدفاع عن الحق.. وقف الاثنان أمام بعضهما البعض كوجهين لعملة واحدة.. وجهان متناقضين.. أحدهما يحمل روحًا هادئة فياضة المشاعر والأخر يحمل روحًا قاسية عنيدة ولكنهما يتشابهان في قلب يعذبه الفراق.. اقترب منه العقرب وعينيه يملؤها الود والعناق المحبوس بينما هاجم صدر عز العرب قليل من السعال المتتابع:

--اليوزباشي أحمد عز العرب.

--كنت على وشك العودة إلى القاهرة وانهاء انتدابي هنا.

--ستعود.

نظر له بامتنان وسعادة حاول أن يخفيها.. تحرك ناحية شباك تلك الغرفة وفتحه واستنشق الهواء البارد.. سئله عز العرب متغلبًا على سعاله مستنشقًا الهواء::

--هل أنت الضابط الجديد؟

--لا.. أنا هنا بصفة سرية.. وعليك ألا تخبر أحدًا بسبب وجودي.

--لماذا؟

--الأمر غاية في الخطورة أيها اليوزباشي الهمام..

الداخلية تشك بأن هذا المتهم الهارب يحيى بركات

وراءه لغز يهدد أمن مصر بأكملها.

--ولكن ماذا حدث لك؟ ولماذا عثرنا عليك فاقدًا للوعي على أطراف القرية؟

بحث العقرب عن اجابة سريعة:

--أنا أعاني من مرض ارتفاع ضغط الدم ويبدو أنني فقدت الوعي من جراء ذلك.

--هل أنت بخير الآن؟

--كل شيء على ما يرام.

--لم نعثر معك على أي تحقيق للشخصية.

--يبدو أنني فقدته حينما غبت عن الوعي.. أشكر الله أنني لم أفقد

اشارتك إلى نظارة الداخلية وإلا اصبحت مهمتي هنا غير موفقة..

ربما شرعت في اعتقالي.

قالها ضاحكًا محاولًا وأد ذلك الشك الظاهر في عيني عز العرب..

--هل تدخن؟

--نعم.

وناوله سيجارة وأشعلها له ثم لنفسه ونفث منها ليخرجا دخانهما يبارزان بعضهما البعض قبل أن يختلطا ويستحيل تفريقهما.

--سمعت منذ قليل إلى بكاء طفل.. أهو ابنك؟

--كلا.. ابن أحد الخفراء المحترقين في تلك الحادثة وأنا أهتم به كونه يتيمًا.

ربت العقرب على كتفه مبتسمًا.. نظر إلى الأفق نافثًا دخان سيجارته.. قطع صمتهما:

--الآن أريدك أن تقص ليّ كل شيء حدث هنا.. كل ما رأيته وتعرفه عن يحيى عبد النور بركات.

--حسنًا.

بدأ عز العرب قصته عن ذلك المجرم الخطير تاجر الآثار حارق قريته عن بكرة أبيها.. قاتل عائلته وخاطف ابنه العمدة وقاتله والمأمور.. قصة لم تجد اهتمامًا في نفس العقرب فقد جاء باحثًا عن يحيى بركات المُخلِّص من اللعنات وليس المجرم عتيد الاجرام.. جاء ليتأكد إن كان هو المُنقذ كما أعلن كاهن كنيسة الشيطان المحروق أم يحيى بركات.. شيئان أثارا انتباهه في حكاية عز العرب.. أولهما حريق القرية.. احترقت القرية بأكملها.. تذكر حينها ذلك الحريق الهائل في كنيسة الشيطان على يد كاهنها فريد مهران.. نفس المشهد يتكرر والفارق قرن كامل من الزمان.. وثانيهما أن كل من فريد مهران ويحيى بركات قد اشتركا في حرق محيطهما بكل من فيه تبعًا لما رواه عز العرب.. شيئ غامض يجمعهما ولكنه بقى خفيًا.. عليه العمل على كشفه مع الساعات القادمة مهما كان الثمن.. تأكد العقرب بطريقته من غياب تداخل الأزمنة في ذلك الزمان وكأنه قُذف خارج زمنه الموشك على الفناء بعد الغوص في بركان قاتل.. وكأنه فرَّ خلال مسارات زمنية خفية حمته من الهلاك.. لم يستوعب عقله كيفية حدوث ذلك على الإطلاق ولكنه حدث.. ها هو حي طليق أمام جده الأكبر يراه رؤى العين ويحادثه ويشاركه في قضية يحيى بركات.

خطر في باله فكرة للمرة الأولى.. هناك شبهًا غريبًا يجمعه بيحيى بركات.. كلاهما منقذان مزعومان.. كلاهما يعانيان الفراق عن الحبيبة بسبب اللعنة.

دقات متتالية مضطربة على باب الاستراحة.. ترجل عز العرب وفتح الباب ليرى الخفير النظامي والهلع على وجهه لاهثًا فسئله:

--ما بالك أيها الخفير! هل حدث شيء جديد؟

--يفضل أن تراه بنفسك يا حضرة اليوزباشي.

نظر ناحية العقرب ثم همَّ بالخروج بعد أن تبعه إلى الخارج.. كانا على موعد مع موجة جديدة من المجهول.

****

صوت آذان الفجر يتسلل إلى تلك الغرفة في بيت "جون انطوان" إلى مسامع زينة زيدان..

فقد غطت في نومٍ عميق بعد إرهاق وحيرة..

--الله أكبر.. الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمدًا رسول الله

فتحت عينيها بغتة وكأنها تصحو من كابوسٍ ذميم.. عرقٌ كثيف ابتلت له ملابسها التي لم تتخلى عنها منذ قدومها وجسدها يرتعش بالكامل.. يبدو أنها تعاني من الحمى مجددًا.

ضوء عمود النورالخارجي يعكس اضاءته في غرفتها بعدما فتحت شباكها.. وصفير الرياح يتعالى.

استمعت إلى الآذان بالكامل الخارج من مأذنة مسجد قريب لذلك البيت.. تشعر بالإعياء الشديد.. تزداد رعشاتها.

بحثت في الغرفة عن ذلك الدواء الذي اعطاه لها العجوز فلم تجده.. لم تعد تحتمل.

فتحت باب الغرفة في طريقها لغرفة العجوزين.

هالها ما رآت.. تسمرت في مكانها كاتمةً أنفاسها.. فما تعايشه في هذه اللحظة أصعب ما مرت به في رحلتها الغامضة.. العجوز وزوجته ليندا مذبوحين على كرسيهما في منتصف الصالة بجوار الصليب وتلك الخزنة في الجانب مفتوحة وفارغة.. رائحة الدماء تفوح في الأرجاء.. تثير تقيؤها في الحال.. دمائهما المختلطة تخضب الأرض والحائط خلفهما.. وسكين مُلقى بجوارهما غارقًا في بركة من الدماء.. وكأن دمائهما تكتب جملة ما على الحائط في شكل شبه منتظم..

"وتستمر اللعنة".

****

في نفس التوقيت وقف عز العرب والعقرب في تلك الزنزانة الفردية التي حُبس فيها يحيى بركات قبل ساعات ترحيله.. لم يدخلها أحد منذ ذلك الوقت إلا من دقائق معدودة.. سمع الخفير بعض الأصوات في داخلها فذهب ليستكشف سببه.

كانت هي في منتصف الزنزانة.. تلك العجوز الشمطاء التي رآها في كابوسه الليلة الماضية..

إن لها إبتسامة غامضة مرعبة.. في يدها شعلة من النيران ولا تتحرك.. برقت عينا عز العرب حينما شاهد ذلك الرسم وراءها على الحائط.. رسم مطابق للخريطة التي رآها على حائط بيت يحيى في كابوسه.. ولكنه هنا قد رُسم بالدماء.. سئله العقرب:

--من هذه العجوز؟ وما هذا الرسم الدموي؟

لم ينطق عز العرب ببنت شفة.. اقترب من العجوز.. استل سلاحه شاهرًا إياه في وجهها مهددًا:

--كيف دخلتي إلى هنا أيتها العجوز؟ وأين يحيى؟

لم تجبه بشيء.. بل انطلقت رصاصة من دون رغبته لم تخطىء رأسها فارادتها قتيلة في الحال.. تنساب الدماء من رأسها المخترقة.. بُهت عز العرب.. لم يضغط على الزناد.

خرج سريعًا مُنطلقًا خارج قرة القول وتتبعه العقرب في حدة:

--توقف أيها اليوزباشي.

--دعنى وشأني أيها الضابط ووفر اتهاماتك للتحقيق.

كان عصبيًا متوترًا للغاية..

--لماذا قتلتها؟ قف وحدثني.

توقف عز العرب صارخًا في وجهه:

--أنا لم أقتلها.. لم أقتلها.

--لقد رأيتك بأم عيني.

--إذًا فارسل إلى النظارة وأخبرهم عن تلك الجريمة ليحاكمونني.

اقترب منه مُهدئًا له مربتا على كتفه:

--لن أفعل ذلك.. إهدأ أيها اليوزباشي.. إهدأ وأخبرني ماذا يجري هنا؟

أقسم لك بأنني سأساعدك واقف إلى جوارك.

--لا أعرف.. عقلي عاجز عن التفسير.. أنا عادة لا اصدق تلك الترهات.

--أي ترهات؟

--لقد رأيت هذه السيدة بالأمس في حلمي.

--وما العجيب في هذا؟

--قابلتها مرة واحدة منذ أيام وأنا في طريقي إلى هنا..

قرأت لي الطالع.. قالت لي جملة لم أنسها:

"ستطأ بقدميك فوق الجحيم ،وتبارز سيوف الشياطين ،وينغرس في قلبك

خنجر مسموم ،ستعيش عمرًا من دون فرار.. لا جرح ينضب ولا نسيان..

قدرك لعنات، وحياتك عثرات ،ودنياك أشواق بلا لقاء"

وهذا ما عايشته هنا في هذه القرية المحترقة..

رأيت الجحيم بأم عيني والناس تتحول إلى رماد..

ورأيتها من جديد في كابوس الليلة الماضية..

كانت تردد نفس الجملة..

وفي نفس الكابوس دخلتُ بيت يحيى ووجدته واقفًا مع امرأة

وخلفهما نفس الرسم على الحائط.. نفسه في الزنزانة..

ولكن في الكابوس أضيف عليه جملة "باب الجحيم من هنا"

برقت عينا العقرب وكأنه التقط لتوه خيطًا هامًا عليه بتتبعه في شغف شديد:

--أريدك أن تقص عليّ كل شيء تتذكره من هذا الكابوس.

--لا أتذكر الكثير غير هذه العجوز والخريطة.. وبعض كلام تلك المرآة إلى يحيى.

--أخبرني به.

--قالت له أن هناك لعنات فُتحت أبوابها على مصراعيها وستتزايد حتى تشمل العالم

أجمع.. سيتمني الناس الموت ويأكلون بعضهم بعضًا وأنه المنقذ والمُخلِّص من هذه اللعنات.

--كيف؟؟ ألم تخبره كيف؟؟

--قالت له.. احرقني.

--ما معنى ذلك؟؟

--لا أدرى.. ولكنني سأعرف.. تعال معي.

--إلى أين؟

--سأخبرك في الطريق.

اشار إليه عز العرب أن يتبعه فوق جواده وانطلق به.. امسك العقرب به جيًدا:

--عليّ بمهاجمة نفس المكان الذي تشير إليه تلك الخريطة..

ربما يحيى يختبيء هناك.. إنه أمر خارق للمنطق ولا أعرف كيف يحدث ولا كيف

وُلجت هذه العجوز للزنزانة؟ ولكنني سأبدأ بتلك النقطة المكتوب عليها باب الجحيم من هنا.

--هل تعرفها جيدًا؟

--لقد رُسم بعناية فائقة.. نعم سأدركه لا محالة.

اخفى عز العرب أي حديثٍ ممكنٍ عن زينة زيدان وعن أي علاقة بينها وبين يحيى واصر دائمًا على ذكر يحيى بالمجرم الهارب..

ومن مسجد القرية اتخذا طريقهما نحو المبتغى بصعوبة بالغة.. توقف عز العرب بعد بداية الطريق في أول الصحراء.. الظلام شديد لا يمكن اختراقه.. ترجل من فوق جواده

--علينا انتظار ضوء النهار.

--حسنًا.

ساد الصمت بينهما كثيرًا.. كل منهما مستغرقًا في التفكير والتحليل من دون جدوى.. شعر العقرب بأنه قد اقترب من شيء ما سيزيح اللثام عن وجه تلك اللعنة.. بينما تضاعف البغض والكراهية في نفس عز العرب تجاه يحيى بركات.. حمَّله كل ما يحدث.. ومع أول ضوء للنهار شق طريقه في السماء عاودا الإنطلاق.. فوق دروب رملية في طريق يخترق الجبال نحو الغرب.. حتى وصل الاثنان إلى تلك النقطة أمام الجبلين.. هبطا من فوق جوادهما.. نظرعز العرب حوله فلم يجد شيئًا بينما لاحظ العقرب ذلك المقبض الحديدي أسفل قدميه ففتحه سريعًا .. تبادلا النظرات وهَمَّ العقرب في النزول وتبعه عز العرب..

دقيقة ووقف الاثنين في منتصف المقبرة.. وجد العقرب تلك الشعلة اسفله وعلبة الثقاب.. أشعلها ليبدو كل شيء واضحًا وضوح الشمس.. ذهل الاثنان وبرقت أعينهما من الصدمة..

هذه الصورة المرسومة لفتاة على الحائط.. إنها نفس الفتاة التي رآها عز العرب في كابوسه السابق.. بل إنها نفس الفتاة التي رآها العقرب خارج مدرعته في بداية طريقه إلى هنا تتوسط الميدان وترقص فوق الخراب وتبتسم له وتناديه:

--النجاة بيدك أنت.. أنت فقط.

الآن تأكد له أنه المُختار لمحاولة أخيرة لإنهاء تلك اللعنات التي حلت بالعالم.. هذا المكان الذي يقف فيه الآن هو باب للجحيم الذي فُتح على مصراعيه.. لعنة دُفنت منذ قديم الأزل في عصر القدماء.. وهناك من آذن بإنطلاقها من نفس المكان.. لعنة ترتبط بهذه الفتاة المرسومة صورتها على حائط المقبرة بشكل أو بأخر.. ربما يحيى عبد النور بركات كان مُخلِّصهم الأول.. وبات هو مُنقذهم ومُخلِّصهم الأخير.

اقترب العقرب يتلمس تلك الصورة البديعة المرسومة للفتاة بينما راقب عز العرب المكان وجال ببصره فيه:

--يبدو أنها مقبرة قديمة دُفنت فيها تلك الفتاة المرسومة على الحائط.. ولكن أين موميائها؟

--من المؤكد أنها سُرقت.

تذكر عز العرب كلمتها في كابوسه ليحيى:

--احرقني.. أكانت تقصد؟

--لعنة تنتهي بحرق موميائها.

--هذا جنون لا يخضع لأي عقل أو منطق.

حينها ارتجت الارض وتزلزلت من تحتهما وانغلق الباب العلوي للمقبرة وسقط على رأسيهما ترابًا كثيفًا.. زاد سعالهما ووقعا على الأرض.. تحركت صورة الفتاة وكأنها تدب فيها الحياة.. تحرك ثغرها بصوتٍ معذب مرتعش يصم أذنيهما:

"ملعونٌ من يطأ بقدميه ذلك المكان.. ملعونٌ من يقترب.. ملعونٌ بلعنة تلك المومياء اللعينة..

ولن تنجو إلا بحرق حيَّها وميتها.. لن تنجو إلا بحرق حيَّها وميتها"

اهتز المكان أكثر وأكثر وسقط حجر كبير على رأس عز العرب فطرحه أرضًا وغاب عن الوعي.. بينما خرجت خطوط من الدماء من عيني تلك الصورة المتحركة وكأنها تذرف دمًا.. وفجأة امتلئت الحائط بالدماء وتبعها بقية الحوائط.. باتت الدماء تُغرق قدمي العقرب..

حاول الهروب فوق سلم المقبرة وفتح بابها من دون جدوى.. الدماء تتزايد في شكل مريع.. خبط كثيرًا على الباب:

--النجدة.. الغوث.

ما من مجيب.. بحرالدماء يزداد وتقترب أمواجه من ثكنات روحه.. سيغرق لا محالة.. يكاد يختنق من عَطِن تلك الدماء المتعفنة.. تقترب أكثر وأكثر.. واجتاحت أول موجة مكانه لتغطى رأسه.. سبح رافعا إياها مناديًا:

--الغوث.. الغوث.

كافح فيضان ذلك البحر المباغت باحثًا عن أي طوق للنجاة من دون جدوى..

غطته الدماء تمامًا.. كان وجهه تحتها يزداد شحوبًا كاتمًا أنفاسه.. إنها النهاية إذًا..أدرك أن الفشل كان حليفه منذ البداية وبدلًا من الموت في بركان مهيب سيموت في بحر الدماء الملعونة.. الوداع الأخير.

النبشة الخامسة

(عيد الزينة)

بلغت أوجاعه حد الموت.. ولكنه موتًا مستحيلًا.. تأبى روح العقرب الرحيل عن جسده.. إنها المرة الثانية التي يتجاهله فيها عزرائيل ضاربًا بقبض روحه الحتمي عرض الحائط.. بركان سابق والآن بحرٌ من الدماء المتدفقة من دون توقف والنتيجة واحدة.. بات الموت أمنية مستحيلة.. وكأنه لُعِن بتلك اللعنة السابقة لحرق كنيسة الشيطان في عصره.. الألم يزداد بقوة شرسة ينهش قلبه ويدب مخالبه في جميع أنحاء جسده كفريسة سقطت للتو من دون فرار. صرخ العقرب غارقًا تحت الدم مبرقًا العينين بصوت مكتوم.. موسيقا عجيبة في غير مكانها تتسلل إلى أذنيه.. ممتزجة بطبول تدق بإيقاع مريب متتابع.. وأصوات لصرخات ممتزجة لأُناس يتعذبون.. وكأنهم كورال غنائي تُقتلع قلوبهم الواحد تلو الأخر من دون موت.

ضوء قريب ينبعث بالقرب منه خلال ثغر تلك الفتاة المرسومة على الحائط.. فُتح ثغرها عن أخره ليخلف نفقًا مستديرًا يسحب الدماء يمكن أن يكون طريقًا للنجاة.. انتظر قليلًا لعل البحر ينحسر من دون جدوى.. سبح العقرب ناحية ذلك النفق في سرعة متلهفًا ولم يتردد في أن يلقى بنفسه داخله.

وكأنه يسقط من السماء إلى الأرض من ارتفاع شاهق عظيم.. تعالت صرخاته المكتومة عاليًا لتمتزج بتلك الصرخات التي يقترب مصدرها.. بئر مظلم لا نهاية له حتى هذه اللحظة.. ظل يتهاوى كثيرًا مُصارعًا تلك الدماء الساقطة معه.. ارتطم العقرب ببحر جديد وغطس تحت دمائه المتعفنة.. صعد بعد لحظات طافيًا على سطحه مستنشقًا الهواء بصعوبة بالغة..

نظر حوله.. بحر شاسع من الدماء يعلوه آلاف المصبات الآتية من الفراغ.. وكأنه تخطى بابًا خفيًا خلال تلك المقبرة.. كافح أمواجه العالية وصارعها حتى بلغ شاطئه البعيد.. وقف على رماله السوداء الساخنة والدم يتصبب من كل ملابسه وجسده لاهثًا.

لافتة كبيرة بالقرب منه مكتوب عليها.. بحر الدماء الملعونة.. وبجوارها لافتة أكبر كُتب عليها "مُنتظَر الجحيم"..

نظر إلى تلك اللافتة مشدوهًا.. تصارعت الأفكار وتداعت في رأسه..

تذكر ذلك الفصل الرابع في رواية النبَّاش التي قرأها للروائي المعدوم يعقوب ادريس..

كان بعنوان مُنتظَر الجحيم.. بعد أن علقت روح بطلها يحيى بركات بين الحياة والموت مصابًا بلعنة لن تنتهي إلا بيديه مُكفرًا لكل الخطايا التي إقترفها من سبقوه.

التفت خلفه.. ذُهل أكثر وأكثر من هول ذلك البحر واتساعه على مدى البصر.. بحرٌ لا نهاية له من الدماء ويعلوه آلاف المصبات.. تتعالى أمواجه القانية ورائحة كريهة لا تُطاق تنبعث منه.. صوت الطبول والموسيقا والصرخات أصبح أكثر قربًا له..

نظر عاليًا.. لا سماء فوقه.. ولا أرض.. مجرد فراغ مظلم.. أهكذا يبدو الجحيم؟

ضوء أحمر كثيف ينبعث حوله من كل مكان يملأ الأرجاء.. وعلامات لأرجل بشرية تنتشر على الشاطيء.. يبدو أنه لم يكن زائرهم الأول.. ملايين من العلامات على ذلك الثرى الأسود.

التف مُبتعدًا عن البحر مُستكشفًا وتحرك في اتجاه تلك الأصوات.. لا شيء يظهر أمامه سوى الفراغ وذلك الضوء الأحمر.. الأصوات تقترب أكثر.. قلبه يرتعش من هول ذلك المجهول المُقبل عليه.

وبعد كيلومتر واحد من تلك الرمال السوداء رأى شيئًا الموت أحب إليه من معايشته.

وادي العذاب..هكذا قرأ تلك اللافتة في طريقه ثم رأي ملايين من البشر يحترقون أسفله في ذلك الوادي المنخفض .. وادي لا نهاية له هو الأخر.. رأى الوجوه تحترق من دون توقف والعظام تتحول الى رماد والبطون تذوب ثم تعود الأجسام كما كانت وتحترق من جديد..
شيوخًا ونساءًا وشبابًا من مختلفي الأعمار.. كلٌ في مكانه مُقيدًا في سلاسل من حديد غليظة لا مفر منها أبدًا.. وفوق ذلك الوادي ممر لا تطوله النيران.. عليه طبول تُدق من دون أُناس.. وصوت الموسيقا ينبعث عاليًا وكأنه منتجع دموي يشرف على عذاب زبائنه.

يرى أضواء أخرى تتلاعب تنبعث في نهاية ذلك الممر.. لم يتردد مجددًا لسبر أغوار ذلك المكان.. مُنتظر الجحيم.. ترجل فوق وادي العذاب مُخترقًا صرخاتهم المتعالية.. تذكر كلمات كاهن كنيسة الشيطان قبل موته حرقًا:

--إن مُنقذكم هو محمد بن عبد الله.

هناك شيئًا ينتظره في هذه الرحلة.. شيء يبقيه على قيد الحياة..

خمسة كيلومترات من المشي أولًا ثم الهرولة فالركض سريعًا.. وكأنه لا يحتمل صوت تلك الصرخات الملعونة.

لافتة أخرى قابلها في طريقه.. "تصحبك اللعنة"

الطريق لا ينتهي وكأن جميع البشر عوقبوا بالجحيم من فرط ما يرى من أعدادهم في هذا الوادي أسفله.

إنه يقترب من بناء زجاجي يتوسط الطريق فوق وادي الجحيم.. زجاج يخفي ماخلفه.. وقف يلتقط أنفاسه المتسارعة.. صوت الموسيقا عاليًا للغاية ويبدو أن ذلك المكان هو مصدره الوحيد.. مد يده ضاغطًا على بابه العملاق فانفتح للداخل.. وقف على أعتابه على حافة الجنون.. مايراه خارج عن أي منطق.. وأي منطق في هذه الأزمة منذ بدايتها؟

رقص ومجون وخمر ونساء في هذا البناء العجيب.. زحام شديد وضحكات تخفي تلك الصرخات في الخارج.. أُناس مريبون حُددت أعينهم بالكحل الأسود الحالك.. عباءات من ذهب تتلألأ وتيجان من ياقوت.. ونساء عاريات تمامًا يتراقصون بينهم.. اخترق زحامهم من دون أن يشعروا به وكأنه والعدم سواء.. ساحة واسعة يظهر منها الوادي من خلف زجاجها ويخفي أصوات المعذبين.. التفت للأعلى فوجد عدد لا نهائي من الثعابين المريعة تتلوى في

سقف ذلك المبنى وكأنها قطعًا من الديكور مخرجين ألسنتهم السامة مبرقين الأعين الصغيرة.. وسط ذلك المكان مجموعة من الراقصات العاريات يلتوون في غنج وفجور وبينهم تقف أحدى الفتيات في ملابسها كاملة.. اقترب أكثر وأكثر.. إنه لا يرى وجهها مطلقًا بسبب زحامهم.

وعرشٌ تحمله الثعابين والحيات يهبط من فراغ علوي.. يجلس عليه شخص يشبههم كثيرًا..

إنهم جميعًا يشبهون تلك الحيات.. عيون رمادية ضيقة مخيفة وثغور واسعة.. ولهم أظافر حادة طويلة وسبعة أصابع في كل يد.. وكأنهم ليسوا من البشر.

لهم ألسنة تخرج كالثعابين يسمع فحيحهم من فرط النشوة التي يشعرون بها.

هلل الجميع في حضور ذلك الجالس على العرش.

انحنوا جميعًا مخرجين ألسنتهم تحيةً له وتوقفت الراقصات عن رقصاتها.

وقف مبتعدًا عن عرشه وترجل بينهم ووقف على منصة عالية بحيث يرونه جميعًا بعدما علت رؤوسهم منصتين له.. اخرج لفافة من جلد النمور وفتحها ليقرأ منها:

--اليوم عيد الزينة.. ذلك اليوم الذي سُجد فيه للشيطان لأول مرة في التاريخ.

وتحققت النبوءة القديمة.. سيسجد للشيطان ملكٌ أنسي في أرض مقدسة وسيتبع الطاغوت

دينًا وحكمًا وفي عهده ستبدأ اللعنات.. حتى يفني البشر قبل الميعاد ويتحقق النصر المبين.

--يحيا مولانا الشيطان.. يحيا إبليس العظيم.

كانوا يهللون في حماس منقطع النظير.. تابعهم العقرب غير مصدقًا ما يراه.. إنه في حضرة الشياطين والجان الكافر من أتباع إبليس.. أغلق الرجل لفافته الجلدية واستكمل خطبته لهم:

--قرون من العمل الشاق والآن نقترب من تحقيق النجاح..

مازلت أتذكر تلك الحرب الأولى بيننا وبين بني البشر وعلى رأسهم

مهلائييل حفيد آدم.. وصراعنا حول سر الكهنوت..

مازالت كلمات مولانا إبليس تتردد حولي في كل مكان:

--الكهنوت هو سرالكون.. سرٌ منحه الله لخليفته على الأرض آدم.. سر الكهنوت.. كيف لمخلوق آبق وأدنى منا أن يستأثر بأفضل الأسرار؟ سرعجيب يتنامي بالحب والإخاء والعطف بين بني البشر وتلوثه الدماء والحروب والشرور.. الكهنوت سر الحياة على الأرض.. سر الخلق وقوة الله.. الكهنوت مفتاح الجنة والخلود.

لم تفلح جهودنا في العثور عليه على الرغم من توارثه بين بني البشر وبعضهم البعض خفية من دون إعلان.. سيأتي رجل منهم في نهاية الزمان يُدعى عيسى بن مريم.

إنه أحد مُلاك سر الكهنوت المُعلن عنه بعد مهلائيل.. وسيعود بعده خفيًا من جديد..

إن وسيلتنا للوصول إلى سر الكهنوت هو نشر اللعنات حتى الفناء قبل ذلك المُختار عيسى بن مريم.. حينها سنعيش نحن على الأرض في أجساد بشرية.. حتى يأتي موعده.. سنتقرب منه ونصبح من أتباعه ومؤمنيه.. سنحصل نحن على سر الكهنوت منه.. حينها فقط سننتصر ونغزو الجنة بينما يقبع أغلب بني البشر في الجحيم.

هلل الجميع من جديد:

--فليحيا مولانا الشيطان.. فليحيا إبليس المُعظم.

تعالى صوت الرجل فوق هتافاتهم:

--إن الكهنوت مبتغانا وسبيلنا لنيله هو الطاغوت الحاوي لتعاويذ تلعن البشر..

قد منحنا هؤلاء البشر الأغبياء تعاويذًا سحرية في كتاب ملعون..

تعاويذ اقتنعوا بأنها تمنحهم الخلود.. تحقق لهم المستحيل..

تُذلل لهم العقبات وتحقق لهم الرغبات والأمنيات.. وساعدناهم في ترسيخ ذلك..

لعنات تتبع لعنات حتى يقترب الميعاد.. ستفنى الأرض بمن عليها.. ويحشروا أفواجًا

أفواجًا للجحيم..

انظروا إلى هذه الأعداد المهولة في الخارج.. أننا نقترب من الإنتصار.. هنيئًا لنا وللشيطان.

إن الشيطان يعدنا الخلود الحقيقي بعد انتصارنا على البشر.. يعدنا بالوصول إلى سر الكهنوت.

كانت تلك الكلمات تفسر الكثير في ذهن العقرب الشرطي القادر على تحليل الألغاز..

أصل الخلاف والحقد والبغض هو ذلك السر الممنوح لآدم من دون غيره.. سر الكهنوت..

ما خاض الشيطان لأجله حربًا ضروسًا مع أحفاد آدم وفشل في معرفته.. فظهرت الخطة البديلة..

آلف كتاب الطاغوت بيديه.. وأول من سجد له متبعًا كتابه كان ملكًا على أرض مقدسة.. لم يذكروا اسمه.. وبديهيًا في عصره بدأت اللعنات في الظهور.. ولكن ماعلاقة كل هذا بهذه الفتاة صاحبة المقبرة و...

--مهلًا.

وكأنه وجد حلًا لذلك اللغز الجديد.. ربما أحدهم قرأ تلك التعاويذ الملعونة على مومياء تلك الفتاة أو هي نفسها قد استخدمتها فصارت ملعونة للأبد.. وبالتالي من بنبش قبرها ويخرج موميائها تصيبه لعنتها.. وربما هناك المئات من تلك اللعنات المقيدة في القبور القديمة.. وبنبشها تنامت اللعنات سريعًا وفي مائة عام اكتملت الخطة وبات الفناء وشيكًا لا محالة..

الأمر يبدو منطقي بعض الشيء فاكتشاف المقابر الآثرية القديمة لم يتعدى مئتي عام على الأكثر.. ربما تلك الأرض المقدسة هي مصر.. هذه اللعنات أُطلقت من مصر قديمًا.. أجزم بأن ذلك الملك الساجد الأول للشيطان كان ملكًا على مصر.

هلل الجميع من جديد رافعين كؤسهم وعادت الفتيات العارية ترقص مجددًا في غنج..

هبط الرجل من فوق منصته مهللًا:

--أطمئنوا.. لن تنتهي لعنتهم إلا بحرق حيَّها وميتها.. وهكذا لن تنتهي على أي حال.

تعالت ضحكاتهم ساخرين من هذه الجملة.. حاول العقرب تفسيرها من دون جدوى.. هو فقط يعرف أن ميتها ربما تكون المومياء ولكن من هو حيَّها؟؟ ربما يكون أحد هؤلاء الّذين سجدوا للشيطان قارئي التعاويذ؟ ربما.. لغز لا إجابة له الآن.. ولكن يكفيه ما توصل إليه إلى الحين.

التفت تلك الفتاة التي تتوسطهم في ملابسها حينها ونظرت إلى العقرب.. كانت عينيها ممتلئة بالدموع.. همست له وكأنها تراه:

--النجاة بيدك أنت.. أنت فقط.

شهق العقرب عاليًا وكأنه يلفظ أنفاسه المكتومة.. لا هواء يدخل رئتيه.

اهتز المكان بمن فيه.. وفي غمضة عين سقط ذلك البناء بحاله في وادي الجحيم والنيران حوله من كل مكان.. وأولئك المعذبين في الخارج يخبطون على الزجاج بقوة عارمة محاولين كسره.. يرى وجوههم تذوب على جدران ذلك البناء.. تشقق الزجاج رويدًا رويدًا وقاطني البناء يتراقصون غير مكترثين بما يحدث.. همست الفتاة مرة أخرى له:

--أنت فقط.

حينها انكسر الزجاج وهاجمتهم النيران جميعًا.. شعر بها تلتهم جسده وآلام الحريق لا توصف.. غاب عن الوعي بعد لحظات ورائحة الموت والعذاب تملأ رئتيه.

****

تعالت أمواج التيه وارتطمت بسفينتهم المجهولة.. أضحى رباعي اللعنة معذبين بالفراق.. تتقاذفهم اللعنات تباعًا من دون هوادة.. سفينة الأحزان.. حُرم عليهم العشق حتى ترسو بهم على شاطيء النجاة.. بينهم اثنين كُتب عليهم الإنقاذ.. باتا مُخلِّصين فهل سينجحان؟

العقرب ويحيى بركات.. ويتبعهما عز العرب وزينة زيدان.. رُبط مصيرهم أجمعين.. بل مصير العالم أجمع.

أفاق عز العرب متوجعًا بآلام لا تُحتمل تحت سيل من الأمطار في تلك النقطة البعيدة عن القرية وفي جواره جواده يشتَّم وجهه مُصدرًا خواءه وكأنه يوقظه .. نهض محاولًا تذكر ما حدث..

--المقبرة!

كيف خرج منها؟ أين المقدم محمد عبد الله؟

بحث كثيرًا عن ذلك المقبض الحديدي الدال على الباب العلوي للمقبرة ولم يجده.. نبش الأرض حوله في كل مكان ولا وجود له على الإطلاق.. وكأن هذه المقبرة اختفت من الوجود.

ظل مذهولًا لفترة ثم تحرك فوق جواده ناحية القرية عائدًا من رحلةٍ يرفضها عقله.

هاجمه السعال من جديد بغزارة بعدما غادر صدره لأيام.. نصحه زملاؤه في القاهرة بزيارة الطبيب والتوقف عن التدخين لفترة ولكنه لم يقتنع.. عز العرب يكره الأطباء.. من فشلوا في إنقاذ والده وأمه منذ عقدين من الزمان.. فليذهبوا جميعًا إلى الجحيم.. قلل من تدخينه بعض الشيء وبالأخص منذ قدومه إلى هذه القرية.. تحسنت رئتيه كثيرًا.. ولكنه في الليالي الماضية كان يُدخن بشراهة فسائت حالها مجددًا.

أُنهكت روحه من هذه القصة بأكملها.. سكن الضيق قلبه منذ أن خطت قدميه هذه القرية.. ليته لم يوافق على انتدابه لهنا.. ليته لم يقابل زينة زيدان.. ليته لم يحبها.

كاد قلبه يفر من بين ضلوعه ليخرج من هذه القرية الظالم عشقها.. تنهد بأنفاس ملتهبة وكأن أحدهم قد أوقد جمرات تشتعل لها روحه من دون توقف.. يعلم أنه لا مفر من المصير المحتوم فلا عودة إلى الماضي.. قد كان ما كان.. لن يقو على نسيانها.. لن يتمكن من الرحيل بعيدًا والغفران.. أشياء كثيرة لا تفسير لها في عقله.. ألغاز متشابكة تفترس ذهنه.

ولكنه يعرف شيئًا واحدًا فقط الآن عليه إدراكه مهما كان الثمن.. لقاء واحد بزينة زيدان.. ليراها مرة أخرى ويتوسل إلى عينيها بالبقاء.. يرجوها أن يصبح كاهنًا مُخلصًا على أبواب محراب حبها.. يتضرع لها ويجثو على ركبتيه لتسمح له بقبس ولو قليل من دفئها وجمال روحها.

أكان البوح بحبها ذنبًا لا يُغتفر؟

يقسم بأنه رآى الجنة بين عينيها.. ولو أنه سيفني عمره باحثًا عن فرصةٍ ليرتمى ولو مرة في أحضان قلبها المستحيل فلن يتردد.

تبًا لهذا القلب الذليل ! تمنى لو انتزعه بيديه ليعود أدراجه قبل أيامٍ ليست ببعيدة قبل ولوجه لهذه القرية.. أيمكن للعشق من طرفٍ واحد أن يُحيل الوحش لملاك؟ الآن يصدق ذلك.

مسح عز العرب دموعه المُعلنة عن ضعفٍ استثنائي غير معتاد من ذلك الضابط الصارم الحاد.. حاول التماسك من جديد.

وصل قرة قول القرية في منتصف النهار.. كان في انتظاره مفاجئتين.

دخل مكتبه ليجد تاريخ اليوم الخامس من فبراير 1910.. نادي على أحد الخفراء ليستفسر عن تلك القتيلة التي تركها في هذه الزنزانة الفردية ليلتها ولكن لفت انتباهه ذلك التاريخ في الجريدة الموضوعة على مكتبه.. سئل الخفير:

--اليوم هو الخامس من فبراير؟

--نعم سيادة اليوزباشي.

--أين كنت بالأمس؟

قالها هامسًا لنفسه شاردًا.

--جنابك لم تظهر بالأمس وحتى حينما جلبت لك صينية طعام الغداء

والعشاء لم تكن في الاستراحة كما اعتدت ذلك.. سيادتك بخير؟

أدرك عز العرب أنه ظل هناك في حضرة تلك المقبرة الملعونة يومًا بأكمله فاقدًا للوعي..

لم يجبه وظل يفكر فيما يحدث له وفي مصيره بعد قتل تلك العجوز.. بادره الخفير بسؤال:

--لم تبدي رأي جنابك فيما حدث في تلك الزنزانة؟

--ألم تبلغوا المركز؟

--انتظرنا أوامرك.. الخفير برعي يقترح أن نبني ذلك الجدار بالجهود الذاتية بعيدًا عن المركز.

--أي جدار؟

--أنسيت جنابك؟ لقد جئت إليك في الثالثة فجرًا أول أمس..

وأخبرتك بأن هناك أمرًا لا بد أن تراه بنفسك..

وخرجت معي ناحية الزنزانة الفردية.

--نعم.

--لقد هُدم جدراها وأصبحت غير صالحة لحجز أي مجرم.. هل تأمر جنابك

بإعادة البناء بأنفسنا أم نرسل إلى المركز؟

برقت عيناه لما يسمع.. تركه سريعًا وهرول في اتجاه تلك الزنزانة.. فتح بابها.. شيء عجيب.. هُدم الجدار الذي رُسم عليه تلك الخريطة.. تبعه الخفير:

--من رأيي أن ترسل جنابك اشارة للمركز ليرسل إلينا بعض الطوب لنعيد البناء.. لا نملك أي ميزانية حاليًا.

--ماذا حدث ليلتها؟

--لا شيء جناب اليوزباشي.. لقد طلبت منك ذلك ليلتها فنظرت لي وانصرفت من دون أن تجيب.. يبدو أنك كنت مستاءًا لإيقاظك في ساعةٍ متأخرة.. كان الله في العون جنابك.. ولكن الغريب بعض الشيء أنك خرجت على جوادك بعدها ولم تعد لإستراحتك.

--أكنت بمفردي؟

--نعم.

--والضيف؟

--أي ضيف؟

--ذلك الذي عثرنا عليه على أطراف القرية فاقدًا للوعي.

--لم تعثر القوات على أي شخص جنابك.

--ماذا؟

--ما زلنا نبحث عن ذلك المجرم يحيى بركات تبعًا لأوامرك ولم نعثر على أي أحد.

--أنت كاذب.

كان عز العرب ثائرًا للغاية.. اشتد عليه السعال بقوة.. أيكون كل ما عايشه لليلتين مجرد كابوسًا سخيفًا؟

لا وجود للمقدم محمد عبد الله الضابط السري القادم من القاهرة.. لا وجود للمقبرة.. لا وجود للعجوز الشمطاء التي قتلها في تلك الزنزانة.

نظر له الخفير متعجبًا.. هاجمه عز العرب وأمسكه من معطفه الميري صارخًا في وجهه:

--من دفعك لتقول ذلك؟ انطق.

--أقسم بأن هذا الحائط قد سقط فجأة.. ليس لي دخل في ذلك جنابك.

وكأن أحدهم قد مد يديه ليخنق عز العرب.. احتبست أنفاسه خلف سعال متتابع شديد..

تركه عز العرب متمالكًا نفسه وتحرك في اتجاه مكتبه.. جلس على كرسيه وأشعل سيجارته وألم عظيم يجتاح صدره.. نفث أنفاسها حتى احترق فلترها والألغاز تفتك به.. لم يعد يفهم أي شيء.

بات عاجزًا عن التفسير.. سقط في بحور التيه واللعنات تتقاذفه كيفما تشاء.

اصبح ممزقًا بين كوابيس لا يُفرّقها عن الحقيقة.. يعايشها بكل وجدانه.. تأكد حينئذ أن ذلك كابوس جديد قفزت فيه روحه ربما لتكشف له الغيب.. وكأن هناك كائن خفي يرسل له تلك الرسائل والشفرات في أثناء نومه.

خبر لفت انتباهه في الصفحة الأولى من جريدة الوقائع المصرية وصورة ذلك البريطاني

جون انطوان وزوجته ليندا" مقتل عجوزين ذبحًا في حي الأزبكية والقاتل مجهول"

لم يكن خبرًا اعتياديًا بالنسبة لأحمد عز العرب.. إنه يعرفه جيدًا ذلك البريطاني المشاكس الذي قدمه له العمدة متولي زيدان في أول أيامه في هذه القرية وأخبره أنه ضمن المسئولين عن التنقيب ضمن بعثة الآثار.. ولقاءه معه في تلك المأدبة التي دعاه فيها العمدة والمأمور يوم اخباره بموافقة زينة على الزواج منه.. وسؤاله الوقح بعد محاولات عديدة لإلقاء النكت السخيفة التي ضحك لها الجميع من دونه فكان يكتفي بابتسامة مجاملة:

--عزيزي اليوزباشي لقد أُذن للعصر والمغرب ونحن منهمكين في تناول الطعام وشرب مالذ وطاب.. أأنت تُصلي فروضك جمعاء في وقت واحد كالعمدة أم لا تصلي كالمأمور؟

سؤال وقح رفض عز العرب إجابته وتحجج بالإنصراف.. للحق لم يؤدي فروض الإسلام منذ رحيل والديه.. وكأنه في داخله يمقت قدر الله الذي حكم عليه باليتم والوحدة من دون غيره.. كان مسلمًا في بطاقة الهوية فقط.. لم تنحني جبهته أبدًا.

جون انطوان وزوجته كانا ضمن الناجين من حريق القرية منذ أيام.. عُثر عليهما مذبوحين في بيتهما في حي الأزبكية.. تذكر هذه الفتاة المرسومة على جدار المقبرة.. فتاة الكابوس.. تذكر كلماتها:

-- "ملعونٌ من يطأ بقدميه ذلك المكان.. ملعونٌ من يقترب.. ملعونٌ بلعنة تلك المومياء اللعينة..

قرون استشعاره البوليسية تربط بين ذلك الكابوس وبين تلك الجريمة.. مُنقِّب عن الآثار في قرية حُرقت بأكملها سافر إلى القاهرة وهناك ذُبح وزوجته.

--لقد أصابته اللعنة.

همس بها مُمسكًا طرف الخيط في هذه القضية.

--المومياء!

ترددت في ذهنه كلمات الفتاة إلى يحيى في كابوسه الأول:

--سيظل المعشوق غريبًا بعيدًا حتى تزول اللعنة على أمل اللقاء..

لن تجد محبوبتك حتى تغلق أبواب اللعنات بيديك.

قرر عز العرب في هذه اللحظة أن يتبع كوابيسه مبتعدًا عن المنطق تمامًا.. سيعود إلى القاهرة ويبحث عن زينة هناك.. البحث عن المومياء هو الطريق الوحيد للعثور على زينة زيدان حبيبته المفقودة.. حتى وإن كانت تحب غيره.. الطريق إلى الجنة يمر وسط الجحيم.

لم يكن عز العرب الوحيد المُمسك لطرف ذلك الخيط.. في نفس التوقيت كان يحيى بركات في يده نسخة أخرى من جريدة الوقائع المصرية ويقرأ نفس الخبر.. خبر انتظره في شغف شديد من غير ميعاد.. فقد ظل طريدًا في الصحراء طوال يومين يأكل من حشائش الأرض في صحبة صديقه الجواد الهارب.. اتخذ النجوم مُرشدًا ليبتعد عن القرية في اتجاه موازي لطريق القطار داخل الصحراء أثناء الليل وفي النهار يكف عن الحركة وينام.. لم يخرج من ذلك الطريق إلا كل شروق ناحية النيل ليشرب وفي طريق عودته يبحث عن باعة الجرائد في محطات القطار القريبة منه خلسة في خوف وترقب من رجال الشرطة المنتشرين في كل مكان.. ولكن لا مفر من متابعة الجرائد وتصفحها سريعًا في مكانها بحثًا عن أية أخبار تدله على أي جرائم غريبة قد تصبح مرشدًا إلى تلك المومياء الطليقة.. لم يصدق نفسه من بلوغ مراده بهذه السرعة.

جون انطوان وزوجته ذبيحين في القاهرة.. علامة مؤكدة لا شك فيها بالنسبة له، وجود تلك المومياء هناك.. اتخذ قراره بالاتجاه ناحية تلك العاصمة البعيدة.. لعل جواده يظل صامدًا طوال هذه الرحلة الشاقة.. لن يقو على السفر بالطرق المعتادة فهو يعلم بأنهم يبحثون عنه في كل مكان.. لقد نشروا صورته في اليوم التالي لهروبه وكتبوا تحتها:

"هروب مجرم الصعيد الأول يحيى بركات بعد قتل ثلاثة خفراء"

****

فتح العقرب عينيه مُدركًا استحالة موته فقد اعتاد على ذلك العذاب.. ربما لم تكتمل مهمته حتى هذه اللحظات.. العجيب أنه يتنقل بين زمان وغيره يهلكه البركان هناك وتلتهم جسده النيران في مُنتظر الجحيم من دون موت.. لم يكن كابوسًا ليفيق منه ولا واقعًا يتقبله العقل والمنطق.. بل حقيقة يعايشها من دون شك.. أيقن أنه المنقذ الوحيد وربما يكون وارثًا للكهنوت من دون أن يدرك ذلك.. إنها مؤامرة كبرى لا يمكن تخيُّلها مطلقًا.. صوت الطبول مازالت مستمرة واختفت الصرخات من حوله.. تسرب الهواء النقي إلى رئتيه واحتضنته الطبيعة الخلابة على سطح الأرض من جديد.. سماء صافية تعلوه ورائحة الورود الزاهية تغزو أنفه ووجوه بشرية تحاوطه في كل مكان.. لقد عاد إلى الدنيا من جديد.. يالله!

كم هي جميلة تلك الدنيا وتستحق الكثير للدفاع عنها والحفاظ عليها!

وبدأ فصل جديد من رحلته الغامضة.

ساحة واسعة يملؤها الناس يهللون وكأنه احتفال ما.. أناس يرتدون إزار يغطي نصفهم الأسفل وعراة الجزع ونسائهم يرتدون جلابيب ضيقة مكشوفة الكتف مزخرفة.. التفت حوله ليرى عن بعد بيوت طينية متجاورة يتخللها شوارع ضيقة منَّظمة ثم في الأفق يظهر قصر كبير يفصلهم عن نهر النيل ويتخللهم المزارع في كل مكان.

يحاوط تلك المدينة على اتساعها الكبير أسوار لبنية سميكة حولها خندق عميق يبدو ظاهرًا للعيان من ذلك الباب الخشبي الضخم القريب من العقرب.

أناس في جواره يضربون الأرض في جانب من السور بفؤوسهم تاركين حفرة كبيرة وهرع أحدهم بحمل جرة زجاجية كبيرة مع أخر.. دقق العقرب النظر إليها.. في داخلها طفل ميت.. قاموا بدفنها تحت السور في القرب من ذلك الباب وأهالوا عليها التراب.

خارج هذه الأسوار بقليل يمر نهر النيل وعلى الضفة الأخرى البعيدة صحراء شاسعة على مدى البصر تتوسطها الأهرامات الثلاثة في الأفق.

لافتة بالقرب منه كُتبت باللغة الهيروغليفية" مرحبًا بك في أواريس".. لم يفهم العقرب أنه

في مدينة الهكسوس القديمة على أرض مصر.. تلك المدينة الفانية عن بكرة أبيها.. الواقعة في شرق الدلتا.. من دخلوا مصر بداية في الفترة ما بين نهاية الأسرة الثانية عشر وبداية التفكك الأمنى والتراخي الناتج عن التنافس على الحكم في الأسرة الثالثة عشر.. الفوضى وتراخي قبضة الجيش المصري على الشام وفلسطين والحدود سمح لدخول قبائل الهكسوس تباعًا إلى أراضي مصر واستوطانها حتى أعلن أولهم الملك سنان بن علوان سيطرته على اقليم في شرق البلاد حتى تأسست الأسرة الخامسة عشر أول أسرة هكسوسية وأحكمت سيطرتهم الكاملة على كل ربوع مصر تدريجيًا.. انقسمت دولة الهكسوس إلى مدن لها معسكرات عسكرية كبيرة وتحيطها سياجات عالية ،ذات نظام حكم عشائري قبلي ،على كل مدينة ملك ،يطلقون عليهم الهكسوس الصغار ومعهم مجموعة من الحكماء والمستشارين يتبعون الملك الكبير ذو السطوة الكبرى الحاكم لهم من العاصمة أواريس.. العقرب لا يجيد قراءة الهيروغليفية ولكنها كانت كافية ليدرك أنه في عصر قديم على أرض مصر قبل الميلاد.. عصر أُستخدمت فيه هذه اللغة في كتاباتهم.. شعر أنه هذه اللحظة في مهد تلك اللعنات.. سيحضر بنفسه مولدها على يد ملك سيسجد للشيطان كما قالت نبوءة الشياطين.

انقسمت مصر في هذا العصر البعيد الى 5 طبقات.. أولهم قبائل العماليق والحقاوخاسوت- من أُطلق عليهم فيما بعد الهكسوس- وتمركزوا في العاصمة أواريس، وقبيلة بني اسرائيل في مدينة جاسان القريبة من العاصمة، وعوام المصريين من القبط والفلاحين والعمال والضعفاء المنتشرين في كل أرجاء البلاد ،وطبقة الملوك والوزراء والحاشية من المصريين من اختاروا الجنوب في مدينة طيبة بعيدًا عن تمركز الغزاة الهكسوس بالإضافة إلى كهنة المعابد وعسكرها من توطدت علاقاتهم بالهكسوس وباتوا في خدمتهم.

ترجل العقرب مُخترقًا حشودهم داخل تلك السياجات العالية.. العديد من الزخارف والفخار الملون المشكل على هيئة الطيور يملأ مدخل تلك المدينة العجيبة.. عربات حربية هنا وهناك تجرها الخيول.. فوقها رجال أشداء ينتشرون في تلك الساحة بين الناس ممسكين سيوفهم وأقواسهم مرتديين دروع صلبة من البرونز.. أغلبهم ذوي لحى مهذبة وشعورهم غزيرة وفي ارجلهم نعول ذوات سيور وفي وسط الساحة رجلًا عملاقًا ذا عضلات بارزة عاريًا الصدر يصارع أسدًا شرسًا وحوله سياج دائري يفصله عن الناس.. وعلى رأسه ربطة من القماش الأحمر.

زأر الأسد منقضًا عليه ولكنه يصارعه بكل قوة ممكنة.. تقلب الاثنان فوق بعضهما البعض والناس تصفق وتهلل عاليًا.. حتى غرس الرجل أنيابه في رقبة الأسد فانسابت دمائه وصرعه

في الحال.. تركه الرجل جثة هامدة ورفع يديه مهللًا سعيدًا محتفلًا بإنتصاره الثمين وسط فرحة الجميع.

البعض ينثر الورود المبهجة فوق الناس وصوت الطبول تزداد ايقاعها وكأنه ايقاع راقص تراقص معه الناس في مرح وسعادة.. انطلق البعض في الساحة الوسطى يتمايلون كلاعبي السيرك ويقفزون فوق بعضهم البعض في حركات أكروباتية.

الناس يصفقون، يمرحون في سعادة وهناء.. لم يلحظ أحد وجود العقرب كما حدث في منتظر الجحيم.. وكأنه اصبح زائرًا خفيًا في تلك القصة بعد دخوله إلى تلك المقبرة حاملة اللعنات.. اندمج معهم في الرقص وكأنه يشتاق إلى بعض الراحة والمرح بعيدًا عن تلك الضغوط التي عايشها منذ بداية تلك القضية.. تمايل معهم وامتلأ صدره بالهواء النقي المنعش.. إنه يرقص ويمرح.. اسلم نفسه إلى تلك البهجة المحيطة به.. قرأ العقرب ذات مرة أن الرقص وسيلة للقضاء على مرض الإكتئاب وينصح به بعض الأطباء مرضاهم ولكنها المرة الأولى التي يُجرّب فيها تلك النصيحة.. يشعر بأن أحماله تتساقط كلما زاد من ايقاع رقصه.. وكأن روحه تتخلص من قيود جسده وتسمو مُحلقة في سماء البهجة.

تعالى صوت بوق يعلن عن شيء ما.. توقفت الطبول وساد الصمت قليلًا.. تتابعت أنفاس العقرب سريعًا لاهثًا حتى ظهر موكبًا بعيدًا يقترب.. موكب فخم تتقدمه عربة فخمة تجرها الجياد ويحاوطها عدد كبير من الرجال فوق جيادهم وكأنهم حرسًا لها مدججين بسيوفهم.

أعلن أحدهم بصوت جهوري:

--موكب ربنا المعظم فرعون ووزيره هامان.

إنه في عصر فرعون إذًا.. بدأت الأمور تتضح رويدًا رويدًا.. ربما ذلك الملك الساجد الأول للشيطان هو فرعون.

وصل الموكب تلك الساحة.. الآن يراه جيدًا.. كبيرهم.. من السهل تحديده.. ذلك الأصلع الخمري حاد العينين المحددتين بالكحل الأسود الحالك.. طويل القامة منسق القوام ذا الهيبة..

الملك الهكسوسي السادس على حكم مصر في فترة احتلال تلك القبائل العربية المسماة العامو للبلاد.

فرعون في أبهى حلله وفوق رأسه تاج عظيم مرصعًا بالجواهر البراقة.

الناس يهللون: يحيا ربنا العظيم.. يحيا فرعون.. يحيا فرعون.

تحرك وحاشيته ناحية كرسي ضخم جُهز له وسط الساحة خلف السياج الأصغر وتحاوطه بعض المقاعد المجهزة لجلوس صفوته وكبار رجال المملكة.

كان وجهه جامدًا يملؤه الغطرسة والثقة العظيمة من دون حدود.. وقف أمام كرسيه ناظرًا إلى الجموع فبدأوا في السجود واحدًا تلو الأخر حتى لامست رؤسهم الثرى جميعًا وانحنى من حوله له وبقى هو مرفوع الرأس مغرورًا.

لم ينحنى العقرب بل بقى واقفًا يتابع ما يدور مترقبًا.. عادت الطبول تدق دقاتها من جديد..

وقف الناس تباعًا وجلس فرعون وملأه من حوله.

كان في جواره رجلان على يمينه ويساره جالسين في زهو.. همس أحد العوام إلى غيره وسمعه العقرب عن قرب:

--هذا هامان الوزير أليس كذلك؟

--نعم من على يساره هو هامان.. ألم تحفظ شكله بعد؟

--إن نظري ضعيف يا صاح.. ظننته من على يمينه.

--كلا ذلك الجالس عن يمينه هو الأمير خيان ابن الملك أبوفيس.

--نعم سمعت عنه.. إنه يلازم فرعون كظله.

--يقولون أن خيان هذا نصف إله كأبيه ولكنه يطمح في أكثر من ذلك ،

ولهذا يلازم فرعون في كل مكان.

--ألن يأتي يومًا نصبح فيه ولو ربع إله؟

قالها ساخرًا كاتمًا ضحكاته فزجره الأخر:

--صه.. لإن سمعك جند فرعون لهلكت في الحال.

دقت الطبول من جديد وجُرجرت منصة خشبية كبيرة فوق عجلات تجرها عشرة خيول حتى انتصفت الساحة على مقربة من فرعون وملأه ويحاوطها العامة من الجانب الأخر.

شهدت هذه الساحة صراعًا وطيسا لأول مرة بين فرعون وموسى نبي الله منذ فترة ليست ببعيدة حينما التهمت عصاه- التي تحولت إلى حية- حيات سحرة فرعون أمام أعين الرعاة وآمن السحرة بالله الواحد وخروا ساجدين له.. وفي نفس المكان اعدم فرعون سحرته على مرآى من الجميع عقابًا على اتباعهم لموسى وربه.. ومن يومها اصبحت فقرة الإعدام مستحدثة على تلك المنصة في ذلك الاحتفال السنوي بعيد الربيع أو كما اطلقوا عليه حينها عيد الزينة.

وبدأت مراسم الاحتفال المهيب في حضرة فرعون.. تعالت أصوات الطبول وتابع الناس بشغف باقي فقرات حفل ذلك العيد.. كان أغلب سكان أواريس من الحقاوخاسوت كما يسميهم المصريون"الهكسوس" وبعض من المصريين وعدد كبير من بني اسرائيل بعدما استعبدهم آل فرعون وحُرِم على بعضهم العودة إلى مدينتهم جاسان التي منحها لهم نبي الله يوسف عزيز مصر في زمان يسبقهم بقرنٍ ويزيد فاضحوا عبيدًا بعد أن كانوا سادة.

صعدت فرقة موسيقية على المنصة يرتدون زيًا موحدًا مصنوعًا من جلود النمر.. عازفوا الهارب والناي وقيثارة كبيرة بالإضافة إلى حاملي الدفوف الكبيرة.. وبدأوا فقرتهم وسط تصفيق الحاضرين على ايقاع الطبول البعيدة في جو يملؤه المتعة والفخامة.

ظهر أحدهم في مقدمة المنصة وبدأ في الغناء في صوت جهوري وخلفه مجموعة من الراقصات الشبه عاريات إلا من قطع من جلد النمر حول أردافهن وبقيت نهودهن المكتنزة عاريات تهتزن على أنغام الموسيقا.

استمع العقرب إلى كلماته المُلَّحنة في إطار أشبه بالغناء الأوبرالي:

--احضر توًا يا سيدي يا من ذهبت بعيدًا..

احضر لكي تفعل ما كنت تحبه تحت الأشجار..

لقد أخذت قلبى بعيدًا عنى آلاف الأميال..

معك أنت فقط أرغب في فعل ما أحب..

إذا كنت قد ذهبت إلى بلد الخلود..

فسوف أصحبك فأنا أخشى أن يقتلنى طيفون*

لقد أتيت هنا من أجل حبى لك..

فلتحرر جسدي من حبك.

تمايلت الفتيات العاريات خلفه في شكل استعراضي مبهر.. واستكمل مطرب البلاط الملكي الأول كلمات أغنيته.

ظهر من جانب المنصة أحد الجنود يجرجر مجموعة من المُكبلين في خط مستقيم ليقفوا خلف الفتيات.. بعض الجنود يقومون بجلد هؤلاء بسياطهم في ايقاع متناغم مع الموسيقا والغناء.

ملئت الإبتسامات ثغور فرعون وملأه.

اقتاد جند فرعون مرآتين ملثمتين بلثامٍ أسود يخفي وجوهيهما.. وقفا بهما فوق المنصة..

جرجر أحدهم صليبًا خشبيًا كبيرًا معدًّا للصلب والتعذيب وأخر يجرجر أناء ضخمًا شفافًا يغلى في داخله نحاس ملتهب فوق نيران مشتعلة أسفله.

واقتربت فقرة الإعدام المستحدثة.. انتهت الأغنية وفقرة الاستعراض المبهرة.. دقت الطبول دقات ترقبية سريعة.

طيفون:الشيطان ست في الحضارات القديمة.

نُزع لثام المرآتين وبدا وجهيهما واضحًا للجميع.. اضطرب الناس وتهامسوا فيما بينهم ثم ساد الصمت بين عمومهم.. استمع العقرب لرجلين في جواره بالكاد لصوتهما الخفيض:

--إنها آسيه زوجة فرعون.

--لا أصدق ذلك أبدًا.

--لقد اتبعت موسى وخابت كل محاولات فرعون لمنعها.

--أيعدم زوجته؟

--إنه لقاسٍ عتيد.

--ومن تلك المرآة التي في جوارها؟

--إنها ماشطة ابنة فرعون.

--أعرفها.. لقد اتبعت هي الأخرى رب موسى.

تبادل فرعون وآسيه بعض النظرات الممتلئة بالتحدي.

وقف أحد جنوده على مقدمة المنصة ممسكًا بورقة من البردي.. فتحها وقرأ منها بصوت جهوري:

--باسم فرعون العظيم.. قد حُكم بإعدام كل من هاتين السيدتين

لإتباعهما رب موسى وخروجهما عن الناموس العام لآل فرعون.

أشار بعدها فرعون بيده فتحرك جنده بماشطة بنت فرعون أولًا ودفعوها على سلم صغير يعلو الإناء الساخن.. وبإشارة أخرى ألقوها في النحاس المغلى وظهرت للناس عيانًا وهي تذوب في داخله.. شهق البعض من هول منظرها.. أقل من لحظة كانت كفيلة بموتها بأبشع الطرق.

يقول الناس بأنهم قتلوا أبنائها الصغار أمام عينيها قبل أيام لإجبارها على اعلان كفرها برب موسى ولكنها رفضت وتحملت بشاعة قادتها إلى الموت.

استمرت الطبول على ايقاع رتيب حاد.. والآن جاء دور آسية بنت مزاحم..

نهض فرعون حينها وتحرك ناحية المنصة عابرًا سلم جانبي فوق السياج.. وقف مواجهًا للناس في زهو وانتصار.. نظر لآسية ثم التفت للجمع مخاطبًا:

--هذه زوجتي.. زوجة ربكم الأعلى.. قد كفرت بي وبالهكم..

واتبعت رب موسى رب رعاة الأغنام والعبيد..

أكررها لكم من جديد.. الأمر لا يخرج عن صراع بغيض على السلطة..

أيريد هؤلاء العبيد حكم مصر؟

ضحك عاليًا ساخرًا وشاركه الجمع في ذلك.. قاطعهم بعد برهة:

--لقد غرّهم أصولنا المشتركة معهم منذ القدم..

ولكن أيتساوى الآلهة مع العبيد؟

أنظروا حولكم.. نحن نملك المال والذهب والعتاد وجيش لا حصر له

قد يخفي الشمس من كثرة جنده وقوته.. وهم لا يتعدون السبعة آلاف نسمة

من الخدم والضعفاء والشيوخ والنساء رعاة الأغنام..

حسنًا إنها حيلة ذكية.. للحق أقول ذلك.. ترسلون موسى ليدَّعي أن

رب خفي يريد لهم الخير.. أي خير؟ أن يُسمح لهم بالخروج من أرض

مصر.. يُسمح لهم بالرحيل.. ليخرج الضعفاء ويتّحدون مع أعدائنا في الخارج

وينقلون لهم كل أسرار حياتنا وتعداد قواتنا هنا في العاصمة..

ويعودون بعدها طامعين في حكم البلاد.. هذا هو التفسير الصحيح..

ولذلك أقولها لكم بكل وضوح.. إن كان لموسى وقومه ربًا كما ادّعى فليبارزني.

قالها رافعًا يديه جانبًا مبتسمًا تلمع عينيه من البهاء والسلطة..

كان بني اسرائيل يشكلون خطرًا سياسيًا على نظام حكم فرعون.. فطلبهم للخروج يعتبر أول انشقاق في تحالف قبائل الهكسوس في مواجهة أصحاب الأرض.. المصريون..

وتشجيعًا لأي طائفة أخرى أن تطلب الرحيل وبالتالي انهيار الدولة المركزية للهكسوس وانهيار التحالف القبلي ويتبعه بالتأكيد تفكك النظام الملكي.. ولكن فرعون لم يصرح لأحد بذلك إلا لذوي القربى من دائرة الحكم ليدركوا خطورة هؤلاء جيدًا.. هلل الناس:

--يحيا ربنا فرعون العظيم.

--الإعدام لمن ضلَّ وهوى.. وليريني ذلك الرب

قوته ويمنعني.. فلينقذها.

اشار من جديد فقام الجند بربط آسيه في الصليب واحكموا وثاقها.. شدوا أوصالها بقوة تمزقت معه أربطتها وهاجمتها آلام شديدة ولكنها كانت صامدة لم تنطق ولو بآهة واحدة.. بل ضحكت وتهللت أساريرها فتعجب الناس.

اقترب أحد الجند منها ومرر خنجره حول كعبها تنفيذًا لأوامر فرعون أن تبقى هكذا تحت الشمس الحارقة حتى تفارق الحياة.

--أرأيتم؟ لم ينقذها أحد.

هلل الناس من جديد وعادت بعدها الطبول تدق بإيقاع سريع راقص وعاود الناس الرقص.. كان العقرب يتابع كل شيء عن كثب.. لم يشغله تلك الأحداث التي طالما قرأ عنها في كتب التاريخ.. ما جذب انتباهه تلك الفتاة الجالسة خلف ملأ فرعون.. بينما عاد فرعون إلى مكانه على كرسى العرش الكبير.. حاول أن يقترب..

لا يراها بوضوح لبعد المسافة.. دقق النظر.. حاول أن يقترب أكثر .. تخلل رقصاتهم وتمايلهم بملابسه المشبعة بالدماء.. مازالت آثار بحر الدماء الملعونة متعلقة به حتى اللحظة.

إنها هي.. بات على الجانب الأخر من ذلك السور الداخلي الحاوي للمنصة وأمامه في الجهة الأخرى فرعون وخلفه تلك الفتاة.. إنها فتاة المقبرة.. صاحبة المومياء المطلوب حرقها.

تبدو شاردة حزينة.. ما أن تأكد العقرب من ملامحها حتى قفز فوق ذلك السياج متجهًا إليها معتقدًا بأنه غير مرئي.. ولكن قبل أن يصل إلى الطرف الأخر منه كان جند فرعون يحاوطونه بسيوفهم.. نُزع عنه حجابه بغتة وفضحته ستائر الزمان.. كل شيء حوله يدور في بطء شديد وكأن الزمن يوشك على التوقف.. فرعون يقف في مكانه متعجبًا والناس مبرقة العينين غير مصدقين لما يرون وتلك الفتاة مغرورقة عينيها بالدموع الغزيرة وكأنها في عالم أخر مليء بالأحزان.. والعقرب في مكانه رافعًا يديه لأعلى وسط الجنود.. ليلقى تهمة لم تكن في الحسبان.. محاولة اغتيال فرعون في عيد الزينة على يد أحد أتباع موسى.

النبشة السادسة

(الحوض المرصود)

(القاهرة 1910)

--أبحثُ عنكِ في الأعماق المضطربة.. واللعنات تتقاذفني في دواماتٍ لا تنتهي..

العتمة تفترس روحي المتعلقة في أمل لقائك طوقًا قد يحملها إلى شطآن قلبك تحت شمس عينيك الدافئتين.. مُستجيرًا على أبواب مدينتك المفقودة.. مُهللًا:

أما من حضنٍ وحيد يمنحني قبلة الحياة؟

أما من نظرةٍ تعدُّني النجاة؟

أما من دفءٍ يغتال ذلك الصقيع الموشك على هلاكي؟

إن كنت والأهوال تصاحبني مصارعًا من أجل جنتك..

مقاومًا طوفانًا يمزق قلبي رويدًا رويدًا في غيابك..

وعشقك المنشود يلوح في الأفق كسراب كاذب..

فحياتي مُعلقة بوجودك.. بحنانك.. بلهيب أنفاسك..

سأظل تائهك الوحيد.. سأمكث في الملكوت أبد الدهر غريبًا منفيًا عن وطنه الفريد..

أنتِ.. أنتِ وأنا.. قصة لا بد لها أن تكتمل..

أنا قلبٌ نُزع في غفوة من الزمان.. أنا عاشق كُتب عليه الفراق والحرمان..

وأنتِ مثواه الأخير..

فلتستبيحي كل أوديتي المقدَّسة في حرم هجرانك المأفون..

كسري أصنام اللعنة والعناء.. واتخذيني آسيرًا للعناق ولو لمرة واحدة ثم فراق.

انطلق يحيى عبد النور بركات الفارس المغوار فوق جواده مخترقًا الصحراء في اتجاه القاهرة مُتّبعًا النجوم في طريقٍ موازي للسكة الحديدية، بعيدًا عن الأنظار، مرتحلًا ليلحق بموكب حبيبته الغائبة زينة زيدان.. كلاهما تائهين في زمان لا يعرف الرحمة.

ركضت زينة زيدان ليلتها كاملة حتى مطلع النهار بعد خروجها من بيت الذبيحين لا تدري إلى أين المفر؟ لم تنس تلك اللحظة التي طالعت فيها رأسيهما المنحورتين غير مصدقة أن هناك بشاعة وإجرام يصلان إلى هذا الحد.. ركضت بكل سرعتها كالمجذوبة والدموع لا تنقطع من

عينيها الحمراوتين وسط وجه تلتهمه الحمّى بقوة فصار كجمرة مشتعلة شديدة الحُمْرَة.. لم تتحمل زينة كثيرًا ووقعت أرضًا فاقدةً للوعي وغابت عن الدنيا لأيام.

انتقلت قوات الشرطة إلى بيت جون انطوان بعد بلاغ من جارٍ تجمعه علاقة صداقة قديمة مع القتيل.. قُيدَّت الجريمة بغرض السرقة لخلو محتويات الخزينة الخاصة بالضحية ولم يعثر في مسرح الحدث على شيء غير ذلك السوار النسائي الفضي المكتوب عليه من الداخل "يحيى".. ولذلك وُجهت أصابع الإتهام ناحية أنثى.. صاحبة السوار.

مرت الأيام وزينة في غياب عن الدنيا.. تلك التائهة المجهولة.

فتحت عينيها من جديد والهواء البارد يتسلل إلى رئتيها وينعشها.

فتاة في العاشرة من عمرها تلتف في القرب منها على موسيقا أجنبية تخرج من جرامافون في جوارها.. ستائر بيضاء تتطاير بفعل الهواء.. بيت جديد ذا اضاءات خفيضة هادئة وسرير كبير في جانب الغرفة التي يبد أنها لطفلة.. رسومات كرتونية معلقة على الحائط وعرائس صغيرة متناثرة في كل مكان.. وبالونات زاهية مختلفة الألوان حولها.

الفتاة لا تتوقف عن الرقص والإلتفاف.. أصوات من الضحكات الممتزجة لنساء في غنجٍ ودلال تتخلل تلك الموسيقا.. جلست زينة متوجعة فلاحظتها الفتاة.. توقفت عن الرقص واقتربت منها في براءة وفرحة:

--ستفرح أمي كثيرًا لشفائك.
--من أنتِ؟ وأين أنا؟

--أنتِ هنا في بيتنا.. وأمي في الخارج تمارس عملها..

وستعود مع مطلع الفجر.

نظرت زينة ناحية مصدر تلك الأصوات الخليعة.. تمتزج خلف زجاج باب الغرفة الطولي ظلال لأُناس يتسامرون.. يتضاحكون.. يتراقصون.. ويقبلون بعضهما البعض وأصوات قرع كؤوسهم تتردد بين الحين والأخر.. كؤوس من الخمر.

ابتسمت الفتاة الصغيرة:

--لا تتعجبي.. ما يدور خارج هذه الغرفة لا يخصّنا..

هكذا تقول لي أمي دائمًا.. الملائكة يمكنها العيش وسط الشياطين..

عليهم فقط الحفاظ على محيطهم النقي.

--كيف جئت إلى هنا؟

--منذ خمسة أيام.. تقول أمي أنها عثرت عليكِ فاقدةً للوعي على أبواب بيتنا..

أنا عائشة.. وأنتِ؟

قدحت زناد عقلها للحظات ولكن للأسف مازالت ذاكرتها يملأها الضباب الجبري.. تحسست ذلك الصليب المُعلّق في رقبتها هديةً أخيرة من جون انطوان.. خطر ببالها فكرة نطقتها في الحال:

--ليندا.. إسمي ليندا.

عليها اختيار إسم جديد تواكب به ذلك المجهول المُقبل.. لم تجد على لسانها غير إسم تلك العجوز الطيبة.. سئلتها عائشة:

--هل تجيدين الرقص؟

--ماذا؟

--لا أقصد الرقص الشرقي.. أقصد هذا.

عاودت الرقص مرة أخرى كفتاة تجيد البالية على اطراف قدميها وتلتف في عرضٍ مشوق..

ابتسمت زينة والوجع يحاصرها:

--أنتِ بارعة.

--اصطحبتني أمي عدة مرات إلى الأوبرا وشاهدت هناك

أوبرا بحيرة البجع.. سأعلمك تلك الرقصات.

--ولكنني ما زلت متعبة.

--الرقص سيساعدك على الشفاء.. هات يديك يا ليندا.

مدت يديها الرقيقتين إلى زينة فنهضت ممسكة بهما.. بدأت في الرقص البطء طالبةً منها تقليدها.. وانخرط الاثنان في رقصٍ غاب معه الإحساس بالوقت.. مرت ليلتها في سرعة متجاهلةً تلك الأصوات الخارجية التي بمثابة الجحيم بالنسبة إليها.. منذ اللحظة الأولى التي أفاقت فيها في بنسيون القرنة وهي تهاب الناس.. تشعر بأن قلبها قد اعتاد على العزلة والإنطواء طوال عمرها المفقود.. ذلك العالم القابع خارج تلك الغرفة كسباع مفترسة تنتظر فريستها لتتناول وجبتها بشراهة.. وخارج ذلك المكان برمته جريمة ربما يقتادونها بسببها إلى حبال الإعدام.. قُتل العجوزين في حضرتها ولا تملك أي دليل يبريء ساحتها.. شخصية مجهولة.. فاقدة للذاكرة.. فاقدة للأهلية وللنسب.. سيزجون بها في غياهب الموت عن جدارة.

سكنت الأصوات بغتة وانتهى الحفل الماجن خارج تلك الغرفة وانقطعت الضحكات مع أول ضوء للنهار.

كانت زينة جالسة مع عائشة على الأرض تلعب معها بعرائسها.. انفتح الباب ودخلت سيدة في بداية العقد الرابع من العمر في فستانٍ لامع قصير يبرز مفاتنها ونهديها الشبه عاريين.

ما أن رأتها عائشة حتى ركضت إلى أحضانها في ترحاب:

--أمي.. لقد استيقظت ضيفتنا.. إسمها ليندا ولا تتذكر أي شيء عن ماضيها.

اقتربت السيدة من زينة مبتسمة بينما وقفت هي مواجهة لها:

--حمدًا لله على سلامتك.

****

خبطات متتالية على باب احدى الشقق في منطقة رمسيس في القرب من محطة القطار..

فتح أحدهم الباب بعد فترة متثاؤبًا في هذه الساعة المبكرة من الصباح في جلبابِ النوم الفضفاض.. إنه "محمود عبد الستار" الصحافّي ذا الأصول الصعيدية.. من كان زميلًا ليحيى في الصغر وصديقًا قديمًا فرقتهما الأيام.. ومع ذلك ظلا يتبادلان الخطابات عن بعد كصديقين تمنيا اللقاء من جديد.. لم يصدِّق محمود تلك الأخبار المنشورة في جريدة الوقائع المصرية عن صديق طفولته يحيى بركات وتمنى السفر إلى قريته القديمة لتقصي الحقيقة ونشرها تبعًا لمهنته، ولكن مرض والدته منعه من ذلك.. على الرغم إنه لا يقيم معها في نفس المكان بل في شقة مجاورة لها.. فبعد موت والده تزوجت الأم وانتقلت للعيش في القاهرة ونشبت بينها وبين ابنها خلافات عديدة انتهت بمأساة.. لحظة اضطربت فيها علاقتهما إلى الآن.. تبادلا الصفعات بين بعضهما البعض بعدما سُدَّت كل السبل للتفاهم.

لم ينس محمود عبد الستار هذه اللحظة مطلقًا.. حُفرت في ذاكرته.. كتب عنها إلى يحيى في أحد خطاباته:

--لقد وطيء الشيطان أرضي وألجم عقلي وتفكيري..

لم أعد اطيق ذلك الرجل الذي حل محل والدي الراحل..

لم أعد احتمل وقوفها في خندقه.. لم أعد احتمل صفعاتها

وسقوطها المتكرر من نظري.. لقد صفعتها ورحلت..

صفعت معها تعلقي بها وخطيئتي بموافقتي على زواجها سابقًا..

صفعت أمي.

لحظة قاسية تلك التي يغتال فيها المرء إنسانيته ويُهين أسمى المخلوقات بالنسبة إليه..

الأم.. ولكن حينما تنحرف الأهواء والرغبات يجد الشيطان سبيلًا يهدم خلاله الفطرة..

يُهيل التراب فوق ذكريات يملؤها الحب والحنان والتعلّق فيغدو قبرًا موحشًا.. لا أنيس فيه ولا عزيز..

كم من جرائم ترتكب في حق الإنسانية!

كم من ابن قتل أمه والعكس!

كانت تلك الصفعة كفيلة بالإبتعاد والمقاطعة.. الإنفصال والعيش بعيدًا حتى هاجمها المرض وهجرها زوجها السفيه فعاد إليها ابنها مجددًا يرجوها الغفران.. ولكنها رفضت عودته وطردّته عدة مرات فاضطر لإستجئار شقة في جوارها والإطمئنان عليها يوميًا ولو عن بعد وتوفير احتياجاتها عن طريق سيدة من جيرانهما.

وقف يحيى بركات منهكًا أمام باب شقة صديقه القديم..

--يحيى!

وما أن رآه محمود عبد الستار حتى سقط بركات غائبًا عن الوعي فقد انتهت رحلته الشاقة باعجوبة ووصل إلى محطته الأخيرة بعد أيام.

****

فتح أحمد عز العرب باب فيلته الصغيرة في حي العباسية بعد وصوله مُنهيًا فترة انتدابه منذ يومين إلى القاهرة.. لم ينم منذ وصوله بل قد هرع يُطالع ملف القضية الخاصة بمقتل العجوزين باحثًا بين أوراقها عن معشوقته زينة زيدان.. تأكد من وجودها معهما قبل الحادث وربما أثنائه أيضًا فقد عُثر على سوار فضي مختوم بإسم يحيى في مكان الجريمة.. إنه يخصّها.. لقد رآه من قبل حول معصمها في المرة الوحيدة التي التقيا فيها عن قرب.. تلك المرة التي سلبت فيها قلبه وعقله وسيطرت على كل حواسه.. يومان هاجمه فيهما السعال من دون توقف لدرجة أن أحد زملائه في نظارة الداخلية قام بإستدعاء طبيًا ليطمئن عليه رغمًا عنه بالأخص بعد تقيؤه دمًا لأول مرة في مكتبه هناك... كتب الطبيب تقريره معتمدًا على الأشعة السينية وأرسله إليه هذه الليلة.

يدخل عز العرب بيته ممسكًا بذلك التقرير المُعلن عن نهايته:

--ورم حاد على الرئة.

مرض قاتل لا نجاة منه.. سيموت عز العرب في غضون عام على الأكثر.. هكذا بلغّه الطبيب اللعين.. قاوم ذلك السعال المتتالي من دون توقف ومد يده ليفتح باب أحد الغرف ليطمئن على ذلك الطفل الصغير المصاحب له من القرية.. فقد تولى رعايته منذ أن أخبرالجميع أنه يتيمًا خسر والديه وأخوته في حريق القرية.. كان نائمًا كالملاك.. اقترب منه عز العرب ونظر له بحدة كاتمًا سعاله بالكاد..

لم يكن ذلك الطفل ابنًا لأحد الخفراء كما ادعى.. إنه "محمد بن يحيى عبد النور بركات"..

ذلك الطفل الوحيد الناجي من حريق عائلته.. عثر عليه عز العرب في استراحته بعد الحريق خائفًا يرتجف..

--من أنت؟

--أنا محمد بن يحيى بركات.. لقد احترق الجميع..

أنا خائف.

أدرك عز العرب في حينها أن ذلك الطفل قد ركض بعيدًا عن القرية في وقت قياسي قبل الحريق بلحظات.. ربما ليبلغ الشرطة عن ابن العمدة "موافي متولي زيدان" الذي هاجم عائلته ورجاله في ليلتها.. هكذا قال له الطفل:

--لقد قيَّد رجال ابن العمدة جدي وجدتي وعماتي.

هدأ عز العرب من روعه وقرر حينها الإعتناء به.. وكأنه يسلب يحيى غريمه وسارق عشقه الوحيد نسله ويحرمه سببًا لبقاء سيرته.. يعاقبه.

ربت عز العرب على الطفل الصغير وخرج غارقًا في أحزان ومرض سيفتك به عما قريب.. كل ما يدور في خلده الآن هو الإنتقام.. إن كان مُقدّرًا له الموت فلن يترك يحيى بركات يعيش

بعده.. لن يتركه ينجو ليقابل زينة يومًا ما ويعيشان على جثته.. سيعثر عليه ويقتله

لتغدو زينة بمفردها بقية العمر.

****

دقت أجراس الخطيئة وأُضيفت إلى عاهرات شارع كلوت بك زينة زيدان أو كما يطلقون عليها "ليندا" تلك الساحرة الممشوقة القوام المسلوبة الإرادة.

أدركت زينة أن قطار النسيان قد قذفها في أحد بيوت بائعات الهوى.. ذلك القطار الذي حملها من الأقصر مرورًا ببيت جون انطوان في الأزبكية ليستقر بها في شارع كلوت بك.. لا تدري أهي النهاية؟ أم يخبيء لها القدر محطات أخرى؟

لم تستطع الفرار.. وإن فكرت فإلى أين وجهتها؟

أتُسلم نفسها إلى الشرطة وتواجه إتهام لن تنجو منه؟

أم تتسول الطعام في شوارع العاصمة؟

كانت ناظرة تلك المحطة هي فتكات- والدة الطفلة عائشة - أحدى عاهرات كلوت بك ذلك الشارع الشهير ببيوت الهوى والدعارة المرخصة من قبَّل الحكومة.. كان من البديهي أن تطلب منها فتكات العمل تحت أمرتها بعد تماثلها للشفاء، ولكن ما كان يعوقها استخراج رخصة حكومية تسمح لها بالعمل.. فتكات لا تخالف القانون ولا تأوي تلك الساقطات حاملات الأمراض الهاويات للمهنة الخارجات عن القانون.. لا بد أن تخضع ليندا للكشف في الحوض المرصود أولًا ثم تُمنح ترخيصًا بالعمل كعاهرة.. ذلك التصريح يُجدد كل اسبوع للتأكد من خلوها من الأمراض التناسلية للحفاظ على صحة الزبائن.. ولكن المشكلة أنها لا تمتلك أي من أوراق اثبات للشخصية ولا تتذكر أي عن ماضيها كما أخبرتها زينة.

استعدت زينة للخروج في صحبة فتكات ذات صباح.. وعدتها بحل تلك المشكلة عما قريب.

وانطلقت عربة الحنتور نحو بولاق.. وفتكات تحدثها لها عن ذلك الشخص المتجهين إلى مقابلته.. من يملك حلًا لمشكلتها:

--إبراهيم الغربي.. إمبراطور البّغاء.. ألا تعرفينه؟

--كلا.

--سأخبرك عنه القليل.. الغربي

جاء إلى القاهرة منذ عشرين عامًا..

نازحًا من قرية كروسكو التابعة لمركز الدار في أسوان..

والده كان تاجرًا للرقيق وبدأ حياته في بولاق وفتح بيتًا للبّغاء..

تحت مسامع الحكومة وموافقتها.. منحته رخصة للعمل ونظمت

الإنضمام إلى تلك المهنة.. والآن لديه خمسة عشر بيتًا..

وتعمل لديه مائة وخمسين مومسًا على الأقل..

ذلك السمين ضخم الجثة المُلقب بالصنم الأبنوسي الصامت يشبه

الاخطبوط.. لديه ذراع في كل مؤسسة ومكان.. لن يعجزه حلًا لمشكلتك..

لا تقلقي عما قريب ستنضمين لقائمة العاهرات المرخصات.

ابتسمت زينة ساخرة مما آلت إليه أحوالها.. الآن عليها الفخر بكونها عاهرة على الطريق!

عاهرة تدنو من ختم الحكومة! تبًا لزمان العهر اصبح عنوانه وبموافقة السلطات.

وصل الحنتور أمام أحد البيوت الجالس أمامه ذلك الرجل الضخم.. مرتديًا جلبابًا ضيقًا يشبه ملابس النساء والغواني ويديه مغطاة بالذهب والمجوهرات.. كادت زينة أن تتقيأ ويصيبها الغثيان من قذارة مظهره وطريقته المعلنة عن شذوذه من دون حياء أو إخفاء.. وتلك الطريقة المقززة لمضغه العلكة.. ونظراته الفاحصة لجسدها وصدرها وقوامها بعد أن أخبرته فتكات بمرادهما.. وكانت النتيجة أوراقًا حكومية بإسم "ليندا ميخائيل" وترخيصًا لمزاولة المهنة..

"رخصة عاهرة.. من الإدارة المحلية للعاهرات.. نمرة ٣٨٠ .. إسم ولقب ليندا ميخائيل.. مصرية الجنسية.. تبعية الحكومة المحلية.. محل الميلاد درب الجماميز..

إنه بناءًا على إلتماس العاهرة المذكورة أعلاه وعلى مقتضى المادة(١٦) من لائحة النسوة العاهرات الصادر عنها قرار نظارة الداخلية لعام ١٨٨٥ ميلادية تُمنح المذكورة الترخيص المطلوب على أن يُجدد كل اسبوع بعد العرض على هيئة الحوض المرصود"

الآن اصبح لها إسما جديدًا وتاريخًا مزيفًا يحميها عواقب جريمة العجوزين.. إسما يمنحها " الحياة والاختلاط بين الناس من دون خوف.. وإن كان مُدّنسا بخطايا وعرق البغايا التي اوشكت على الإنضمام لهم تلك الليلة.

وخرجت زينة زيدان في رداء العهر بإسم ليندا ميخائيل.. العاهرة الجديدة المنضمة إلى بيت فتكات للبّغاء.. بدأت أول لياليها خارج تلك الغرفة البريئة بعيدة عن صديقتها الصغيرة عائشة.. من مُنِعت دومًا للخروج خارج غرفتها مهما يحدث.. تنفيذًا لأوامر والدتها فتكات.

--لا أريد لها نفس المصير.. أتمنى أن يأتي يومًا وأرحل بها بعيدًا.

كانت فتكات غير راضية عن هذه المهنة المبتذلة.. ومع الحاجة والعوّز والجوع تنكسر الرغبات والآمال.. لم يكن هناك طريقًا أخر سوى بيع جسدها إلى راغبي المتعة.. تعوّدت على ذلك منذ عشر سنوات ولا تستطيع الفرار من براثن إبراهيم الغربي.. لقد فعلتها صديقة مقربة لها من قبل وعثروا عليها مقتولة بعدما رفضت العمل مجددًا.

البغاء أو الموت هكذا أعلنها الغربي صراحة.. كان يحافظ بكل قوته على أولئك العاهرات اللاتي دخلن بموافقتهن إلى قفصه الذهبي.. مسيطرًا على بعض المؤسسات وبالأخص جهاز الشرطة تحت يديه.. إمبراطور دولة البّغاء في القاهرة.

ادركت زينة أنها هالكة لا محالة فلن تتمكن من الفرار يومًا ما.. وكأنها هربت من عقاب بالإعدام إلى قفص ممتليء بالورود السامة.. من يخرج منه تفترسه السباع بأمر الغربي.

هجمت قوة من الشرطة في بداية الليلة وراجعوا كافة التصاريح الممنوحة للمومسات وكان كل شيء على مايرام.. تمنوا لهم ليلة سعيدة وخرجوا.. نص القانون وقتها على الحبس من ثلاث سنوات إلى خمسة وغرامة مائة جنيه إذا ضُبطت عاهرة بدون تصريح.

تعالت الموسيقا الماجنة يتخللها ضحكات النساء المتنوعات الأجساد والألوان بين البيضاوات والسمروات والخمريات وكؤوس الخمر تتناقل بين أيدي زبنائهن.

وقفت زينة في حزن شاردة.. شيء ما في داخلها يمنعها من الإنزلاق.. لماذا وافقت على المكوث هنا؟ لماذا لم تركض بعيدًا؟

لاحظت ذلك الرجل ذا البدلة الأنيقة الواقف بعيدًا يرمقها بنظرات اعجاب وإبتسامة تعلو وجهه.. كانت على أطراف تلك الصالة الممتلئة بالفجور ممسكة بكأس من الخمر من دون أن تحتسيه.

تفكر في الهروب الآن.. ولماذا لا تفر منهم؟ يمكنها تمزيق ذلك التصريح الرخيص والهروب وليكن ما يكن.. ذلك المجهول القابع لها خارج ذلك البيت يمزق عقلها إربًا إربًا.. قلبها يرتجف بمجرد تخيل أن يشتبه فيها أحد رجال نظارة الداخلية بدون ذلك التصريح ويُلقيها في شراك تلك الجريمة حتى الإعدام.. كلا لن تتمكن من الهروب.

اقترب أحد الرجال منها في تلك اللحظة ومد يده ليتحسس نهديها في شهوة فجة.. ما كان منها إلا أن صفعته بقوة وألقت بالخمر في وجهه.

--حيوان.

صمت الجميع وتوقفوا متعجبين من ردة فعلها المغاير للمكان.. صفعها الرجل بعدها بقوة ومد يديه مجددًا ليشق فستانها أمام الجميع.. لا حق لأنثى هنا أن تعترض.. الجميع عاهرات.. الجميع مومسات.. تلك قاعدة لا تُخترق.. بات نهديها الرائعين مشاعًا للجميع سال لهما لعاب الرجال.. انقض الرجل الهائج عليهما لاعقًا بفمه الممتلىء برائحة الخمر.. صرخت زينة..

وفي لحظة واحدة جاء ذلك الرجل الأنيق من بعيد وانتزع ذلك الحيوان عنها وقام بضربه:

--كف عن هذه الدونية.

--دعك مني.. إنها عاهرة أيها البرنس.

--إياك أن تقترب منها مجددًا.

لم يستطع الرجل تكرارها من جديد خوفًا من البرنس.. ذلك المُنقذ ذا الهيبة.. خلع الأنيق معطفه ووضعه على كتف زينة واصطحبها بعيدًا:
--تعالِ معي.. لا تخافي.

****

مرت الأيام والألم بلغ منتهاه والوجع يستوطن نفس يحيى بركات الباحث عن حبيبته زينة زيدان الناجية الوحيدة من ذلك الجحيم الّذي فُتح بابه ليدمر حياته وذكرياته ويتخذ أحبابه جمرات والفراق منهجًا.

سبر يحيى أغوار القاهرة في كل شارع وميدان.. طالع الوجوه جميعها باحثًا عن عينيها الدافئتين.. طاف حول كعبة عشقها الغائبة والقهر يصاحبه فقد طرد من جنتها بغتة ولازمته اللعنات.

تمر الساعات واليأس يتسرب إلى نفس يحيى على الرغم من مقاومته الشديدة.. صدّقه خليله محمود عبد الستار وساعده في توفير بعض المعلومات الواردة في ملف قضية قتل جون انطوان وزوجته.. أخبره بهذا السوار المكتوب عيه ختمًا بيحيى.. إنه سوارها.. سقطت دموعه في تلك اللحظة مُتذكرًا ابتسامتها.. لقد أهداه إليها منذ فترة واقسمت ألا تخلعه من معصمها.

--وأباك؟

--أبي! العمدة لا يلاحظ مثل هذه الأشياء.. اتخيل أحيانا أنه لولا شبهي بأمي

لكنت في عداد النسيان في موكب مشاغله وحياته الممتلئة بالصفقات.

--سينتهي كل هذا عما قريب.. سنرحل عن هنا ونعيش الجنة سويًا.

--أحبُّك.

تأكد يحيى أن حبيبته في القاهرة.. كانت هناك في منزل جون انطوان وخرجت منه قبل تلك الجريمة أو بعدها بقليل.. القصة تتضح أمامه الآن.. ذلك العجوز المُنقِّب للآثار قد شارك في نقل تلك المومياء اللعينة أو على الأقل يعرف من قام بشرائها ولذلك لحقته اللعنة.

أوصى صديقه بمتابعة الجرائم في الأيام التالية والبحث عن أي خيط قد يوصله إلى تلك المومياء.

جرائم متعددة لا تمت إلى طريق بحثه على الإطلاق.. انقطع السبيل إلى تلك المومياء تمامًا وبالتالي إلى حبيبته.. خيبة أمل لا تُضاهى.

الساعة الواحدة ظهرًا.. يحيى بركات يجلس على الأرض القرفصاء ورأسه تستند على الحائط خلفه في غرفة صديقه المشارك له في حزن ينتزع قلبيهما..

ضوء الشمس يتسلل من خلف شباك الغرفة المُوصد ودخان تلك السيجارة في يد محمود عبد الستار يزداد من واحدة إلى أخرى ويملأ الغرفة حولهما.

تحدث محمود باسترسال وكأنه يحدث نفسه:

--على الإنسان أن يعتنق قضية ما ويُصارع من أجلها مدى الحياة..

هل تعرف ذلك الفاسد المدعو بطرس غالي؟

اعرف أنك قاريء ومتابع جيد..

في الوقت الذي ارتفع فيه صوت الشيخ محمد عبده مُناديًا بالإصلاح الديني

وصوت الزعيم مصطفى كامل ضد الإستعمار..

وغيرهم كثيرون من الشرفاء والمناضلين للنهوض بذلك المجتمع..

يأتي ذلك الخائن بطرس غالي الموالي للإنجليز..

من كان رئيسًا للمحكمة التي قضت بالإعدام على الأبرياء في دنشواي..

من تبنى بنفسه مشروعًا لمد إمتياز شركة قناة السويس أربعين عامًا أخرى بعد نهاية الإمتياز الأول.. هل تعرفه؟

لم يجبه يحيى وكأنه لا يستمع إليه على الإطلاق.. ادرك محمود ذلك سريعًا فعاد إلى شروده من جديد.. وكأنه لم يتحدث.

دوامات من الحيرة غرق فيها الاثنين.. قفص من الخشب في القرب منهما بداخله ثلاث حمامات طلبهم يحيى من عبد الستار في اليوم التالي لمجيئه لينام على أصواتهم بعد أن يُحكم إغلاق منافذ الغرفة ويُطلقهم فيها.. يشتَّم رائحتهم في كل مكان ويتعثر في بعض الريش الساقط من أجنحتهم هنا وهناك.. يستمع إلى صوت هديلهم المتداخل ليذكره بتلك الليالي السعيدة الّتي قضاها فوق سطح بيته في القرية بين أحضان برج الحمام.. انخرط يحيى في بكاء شديد لم يوقفه صديقه وكأنه يشاركه البكاء من دون دموع.. فحياته ممتلئة بالشجن هو الأخر.

حكى محمود في جلسة صفاء ليحيى عن والدته الغاضبة ومعاملتها السيئة له على الرغم من أخطائها التي لا تعد ولا تحصى ولكنها لا تغفر صفعته لها يومًا ما.. وعن تلك الحبيبة الخائنة "خديجة عزيز" الّتي عشقها بكل جوارحه في قصة حب استمرت لأعوام وانتهت على مقصلة تاجر يكبرها بثلاثين عامًا.. اشتراها واشترى عائلتها الفقيرة والأعذار كثيرة.. الفقر.. الحرمان.. مسؤولية الأم الأرملة والأخوة القصر.

رآها يحيى مرتين.. أحدهما في صورة فوتوغرافية أرسلها محمود له في خطاب سابق ليخبره عن قصة حبهما وتلك المرة منذ يومين حينما باغتت محمود بزيارتها في ساعة متأخرة من الليل.. شاهدهما يحيى من خلف ستار باب غرفته ولم تلحظ هي وجوده.. كانت تستجدي عواطف محمود لأقصى درجة.. اقتربت منه واخترقت حدوده المهترئة ناظرة في عينيه:

--مازلت أحبُّك.

--لقد انتهى الإختبار وأُعلن رسوبك بإمتياز.

--أنت تعرف الأسباب.

--أنا لا أعرف غير أنني خُدِّعت في حب غانية.. تبيع نفسها لمن يدفع أكثر.

--أنت محق.. دعنا مما فات.. ها أنا بين يديك وأطلب منك الغفران.

--وزوجك؟

--لم أعد أُطيق جحيمه.. لم أعد احتمل ذلك العجوز وسياطه الموجعة.

--سياطه؟

--نعم.. انظر.

خلعت فستانها لينكشف جسدها الممتلىء بعلامات التعذيب.. رق قلبه للحظة.. اقتربت منه وهمّت بتقبيله في لحظة ضعف متبادل.. تلامست شفاههما وغابا للحظات في قبلة عارمة.. كأثنين انهكهما العطش وحان وقت الإرتواء.. ولكنه دفعها بعيدًا بغتة بكل قوته فسقطت أرضًا.. صرخ في وجهها بحدة:

--أيتها الخائنة اللعوب.. لستُ أنا من أخون.. عودي إلى الجحيم الّذي فضلتيه على نعيمي..

عودي إلى قصر شوقي المانستيرلي المجاور لحديقة الأزبكية.. واتركي تلك الشقة التي تشبه المقابر.

--محمود!

--لا مكان لك هنا.. هيا.. هيا.

طردها دافعًا لها وفستانها إلى الخارج.. وارتمى محمود بعدها في حضن يحيى مُنهزمًا حزينًا..

سئله في شفقة:

--لماذا طردتها؟

--لأنها كاذبة.

--أمازلت تحبها؟

--لم أعشق سواها.

--الحبُّ يمتلك المغفرة.

--حينما تصدُّق التوبة.

--أتعني؟

--إن تركته وهجرت أمواله الّتي باعتني لأجلها سأصدقها.

--لماذا لم تقل لها ذلك؟

--عليها إدراك ذلك من نفسها.

وامتزجت أحزانهما.. مرت لياليهما بصعوبة بالغة.. بلغ اليأس حد الموت.. أحدهما يبحث عن حب تقتله اللعنة والأخر تقتله الخيانة.

نفث محمود دخان سيجارته الحادية والعشرين ونظر إلى يحيى

--ألن تُطلق ذلك الحمام اليوم؟

قالها مشاورًا على ذلك القفص القريب.

لم يجبه يحيى.. نهض من مكانه وفتح باب القفص وأطلق الحمامات الثلاثة تتطاير بالكاد في ذلك الدخان القاتل المنتشر في الغرفة.. همس يحيى شاردًا:

--لن يقووا على الطيران.. سيموتون عما قريب مختنقين.

تشابهت الأيام وتتابعت.. والعشق ذنبٌ لا يُغتفر.. وأمل يحيى بركات في إيجاد وسيلة للنجاة يخفُت رويدًا رويدًا.. لم يتبق سوى قبس بعيد يوشك على الإنطفاء.

في أحد الليالي صحا من نومه على صوت أجراس تتردد في تلك الغرفة الشاهدة على آلامه..

وصوت هديل الحمام يتعالى حوله وضباب كثيف يملأ الغرفة.. صوت ينادي:

--محكمة.

--حكمت المحكمة غيابيًا على المتهم يحيى عبد النور بركات بالإعدام شنقًا.

نادى هلوعًا:

--محمود.. محمود!

بحث عن باب الغرفة من دون جدوى وكأنه أُحيل إلى حائط مُصمت.. الغرفة لا باب لها ولا شباك.. غارقٌ وسط الضباب القاتل.. رأى حبلًا منسدلًا من منتصف سقفها.. ابتعد إلى الوراء خائفًا مناديًا:

--محمود.. محمود!

رأى بغتة وجه أحمد عز العرب وسط الضباب.. إنه يقترب منه في زيه العسكري جامد الملامح شاهرًا مسدسه في وجهه.. صرخ يحيى:

--أنا لم أقتل أحدًا.. لم أقتل أحدًا.

ظهر رجلتن من خفراء القرية واقتربوا منه.. قيدوه رغمًا عن صرخاته.. لفوا ذلك الحبل المتدّلى في رقبته:

--اتركوني.. المومياء هي سبب الجرائم.

في هذه اللحظة الفارقة رأى يحيى زينة شاردة حزينة تقف عن بعد ويتلاشى الضباب حولها..

ناداها:

--زينة.. زينة!

لم تجبه.. أحكمت الحبال وثاقها حول رقبته وقام عز العرب بشدها.. إنه يختنق.. تفارق روحه الحياة قبل الآوان.. يصرخ:

--لم أقتل أحدًا.. زينة!

حينها انتفض في مكانه غارقًا في عرقه.. كان كابوس مرعبًا.. تحسس رقبته.. نظر إلى الغرفة من حوله.. كل شيء كما هو.. غاب محمود عن سريره.. برقت عيناه حينما شاهد تلك الحمامات الثلاثة موتى في أحد الجوانب.. نهض سريعًا تجاههم.. لقد نفقوا.

استمع إلى صوت جرس الهاتف الخارجي.. خرج من غرفته مناديًا:

--محمود.. محمود!

يبدو أنه بمفرده في الشقة.. صوت نسائي مرتعش على الجانب الأخر من المكالمة:

--محمود.

--محمود غير متواجد الآن.

--أخبره أنني قتلته.. قتلته وسأنتحر اثباتًا لحبي.

وانتهت المكالمة سريعًا.

--انتظري.. انتظري.

سقطت سماعة الهاتف من يده وسارع بإرتداء ملابسه وخرج مُتجها إليها.. عليه أن يمنعها بأي ثمن.. سيموت صديقه إن رحلت عن الحياة.. لن يستطيع العيّش بدونها.. إنه أكثر الناس معرفة وإحساسًا بتلك المآساة.. محمود عبد الستار يعيش فقط على أمل بعيد وان كان يغالط نفسه وينكر ذلك.. يغالب أيامه الممتلئة بالأحزان وأمل لقاءهما من جديد في عش العشق الذي هجرته يراوده ليلًا نهارًا.

ركض يحيى ناحية قصر المانستيرلي في حي الأزبكية.. من حسن الحظ أنه استمع إلى ذلك الحديث الأخير بينهما.. اخترق الشوارع سريعًا إلى هناك.. لم تكن المسافة بعيدة فهي لا تتعدى اثنين كيلومترًا.. لقد بحث في شوارعها مسبقًا عن زينة كباقي القاهرة.

وصل يحيى إلى قصر المانستيرلي.. قفز فوق سوره بصعوبة وركض إلى الداخل.. عم السكون المكان في هذه الساعة المتأخرة من الليل.. صعد بعض الدرجات ونظر من خلف زجاج الباب الأمامي.. لم يرى شيئًا.. حاول الدخول ولكنه فشل.. التف حول القصر حتى وجد بابًا خلفيًا مفتوحًا دخل منه.. مر في ردهات القصر الواسعة حذرًا.. بحث في كل الغرف متوترًا.. لم يجد أحدغير بعض الخدم الّذين يغطون في نوم عميق.

وصل إلى غرفة مغلقة في منتصف صالة القصر.. فتح بابها في حذر.. فات آوان الإنقاذ.. برقت عيناه.. رجل في الستينات من العمر مُلقى على أريكة أمامه وفي صدره سكين غُرز في قلبه.. وفي جواره أرضًا خديجة وقد فارقت الحياة بطلقة مسدس معلقًا بيدها.. تبدو الطلقة في رأسها بوضوح غارقةً في بحرٍ من الدماء المختلطة لكليهما.. خزينة مفتوحة وممتلئة بالمال على يساره.. يبدو أنها قتلته بغتة أثناء فتحه لخزانته.. هاهي تُعلن أنها تركت المال والحياة في آن واحد تكفيرًا لخيانتها السابقة.. سيلحق بها محمود عبد الستار لا محالة.

وكانت الطامة الكبرى الغير متوقعة بالمرة بالنسبة إلى يحيى بركات.

صورة معلقة على الحائط فوق جثة الرجل.. يظهر فيها مع ثلاث شخصيات أخرى..

شوقي المانستيرلي وجون انطوان والمندوب السامي البريطاني- الدون غورست- إنه يعرفه جيدًا من صوره المنشورة بالجرائد.. ومعهم مالم يتوقعه.. أحمد عز العرب.. الضابط المنتدب في قريته المحترقة عن بكرة أبيها.

ترى ما الرابط بينهم؟

****

الساعة الواحدة ظهرًا العشرين من فبراير أمام مكتب دولة رئيس وزراء مصر بطرس غالي.. تقف سيارته الفخمة تنتظر خروجه من مكتبه لتصحبه إلى اجتماع عاجل في القصر الملكي.. خرج بطرس غالي في صحبة حراسه.. فجأة انطلق عليه وابلًا من الرصاص أصابه منه ستة رصاصات أودت بحياته في الحال.. سقط ميتًا بينما تمكن الحراس من الإمساك بالفاعلين..

شابين ثائرين أرادا تطهير البلاد من ذلك الخائن عدو الوطن..

إبراهيم الورداني العضو الجديد في الحزب الوطني المنادي برحيل الإنجليز عن مصر..

وزميله ومساعده في الخلية السرية.. محمود عبد الستار.

النبشة السابعة

(سجن زويرا)

(عصر فرعون)

سجين استثنائي في سجن زويرا على أطراف العاصمة الهكسوسية أواريس.. استمع العقرب أثناء اقتياده فوق عربة تجرها الخيول مكبلًا وعلى وجهه غطاء أسود يحجب الرؤية إلى صوت أحد الجنود هامسًا إلى غيره:

--سيسومونه العذاب الأليم في سجن زويرا.

--إنها أوامر الرب فرعون.

--ولكن لنشدّد عليهم بأن يحافظوا على حياته.

--لماذا؟

--لا أدري.. لننفذ من دون مناقشة.

--حسنًا.

لقد رآها.. تلك الفتاة صاحبة اللعنة.. إنها من ملأ فرعون.. الآن يلقيه القدر في خضم الأحداث وبدايتها.. في عصر بدء اللعنات.. عصر فرعون والآيات التسع.. الدم والجراد والقُمَّل والطاعون وموت الأبكار والجدب ونقص الأموال والأنفس والضفادع والطوفان.. تلك اللعنات الأولى المُعلنة لشارة البدء لعصور الفناء.. لقد سجد فرعون للشيطان لا محالة.. واستخدم تلك التعاويذ الملعونة في كتاب الطاغوت الذي أهداه له إبليس مخدوعًا بالخلود والإنتصار ولكنه في الحقيقة سيطلق أسرابًا من مواكب الموت ستطول اللاحقين له.

ولكن ما علاقة تلك الفتاة بذلك؟

أسجدت معه للشيطان؟

وإن كان كذلك.. فلماذا انتهاء هذه اللعنة تقتضي حرق مومياءها؟

أسئلة متعددة دارت في ذهن العقرب في طريقه إلى زنزانته الفردية في سجن زويرا.. ترددت تلك الجملة التي استمع إليها من صورتها المتحركة في المقبرة قبل الغرق في بحر الدماء:

--لن تنجو إلا بحرق حيَّها وميتها.. لن تنجو إلا بحرق حيَّها وميتها"

ماذا تعني هذه الجملة؟ وإن كانت مومياءها هي ميتها؟ فماذا تكون حيّها؟

على أي حال أسلم العقرب نفسه لرياح القدر.. ترى إلي أين تحمله وتنتهي به؟

وبدأت مراسم التعذيب على أشدّها.. زنزانة ممتلئة أرضها الصخرية بالمياة.. وظلام لا يشقه غير تلك المشاعل المصاحبة للجنود المُعذبين له.. وعودان صغيران من الخشب وضعا بين أسفل عينيه وأعلاهما ليمنعانه من إغلاقهما مهما حاول.. مرت خمس ليالٍ من دون نوم.. فقط يقدمون له الخبر ليضمنوا استمراره في الحياة.. حتى قضاء حاجته في نفس المكان.

حاول أن ينام فوق بركة المياة فاتحًا عينيه رغمًا عنه ولكن محال.. لم يستطع.. انهار جهازه العصبي.. كان يصرخ من دون مجيب:

--أريد مقابلة فرعون.. أريد مقابلة فرعون.

في الليلة السادسة بدأوا في ضربه بالسياط الغليظة على جسده الهزيل..

خمس مرات يوميًا لمدة خمسة أيام أخرى.. كاد أن يُجنّ.. أوشك على الموت بجدارة.

اهترئت مقاومته وشحب وجهه وهاجمته الأوجاع حد الموت.. لم يعد قادرًا حتى على الصراخ.

في الليلة العاشرة في موعد تعذيبه المعتاد لم يحضر أحد.. تركوه طوال اليوم يقتله الإنتظار..

لو أنهم يزيلون هذين العودين الخشبيين عن عينيه لينام قليلًا.. تبًا لهم ولتعذيبهم السقيم.

انفتح الباب والعقرب جالس القرفصاء في أحد الجوانب مرتميًا.. نظر بعينين حمراوتين كالدماء ناحية الباب الخشبي الصغير.. انفتح قبره الدنيوي ودخل رجلًا في زي مغاير لهولاء الجنود الذي اعتاد على رؤيتهم في ذلك المكان.. يصاحبه جنديان يمسكان شعلتان يضيئان بهما المكان.

اقترب منه الرجل ووقف بالقرب منه.. قام أحد الجنديين بإرغام العقرب على الوقوف.. حادثه مبتسمًا في هدوء:

--هل تعجبك الإقامة لدينا؟

لم يجبه العقرب المتحامل على نفسه ليظل واقفًا من دون سقوط.

--فلنتعارف.. أنا الأمير خيان ابن الملك أبوفيس الحاكم لإماره الشمال.

لقد طلبت لقاء الرب فرعون.. أليس كذلك؟

--نعم.

--هات ما عندك.. أنا رسول فرعون إليك.

--أريده هو.

--لتقتله.. أهذا ما تريد؟

--لا.. لن أقتله.. لم أنتوى قتله حتى الآن.

--لقد أوشكت على تنفيذ ذلك في عيد الزينة.

--لا.. غير صحيح.

--لن تجدي أكاذيبك.. على أي حال لم نكمل برنامجنا الخاص للترحيب بك..

إن كنت لا تملك شيئًا لتعترف به فلنكمله ونلتقي من جديد.

--أهناك أكثر مما فعلتموه بي؟

اقترب منه مهددًا:

--نعم.. لدينا أقنعة العار.. أقنعة من المعدن لأشكال حيوانات توضع على الرؤوس وتطوف بها أرجاء البلاد.. ولدينا ايضا أكواب الشراب المتجددة.. سنجبرك على شرب المياة من دون توقف ونغلق أنفك عنوة.. وإن لم تتحدث لوقتها سنجرب معك كرسي الغرق في مياة النيل مقيدًا ومكبلًا بالسلاسل أو الإحتراق داخل الثور المعدني الموقد أسفله النيران أو نضعك داخل تابوت العذاب الممتليء بالخناجر تقطع جسدك من دون موت.. أو نقطع أنفك وعضوك الذكري.

--لماذا كل ذلك؟

--لأنك لا تريد الإعتراف.

--بماذا؟

--أن موسى قد تآمر على قتل فرعون وأرسلك لتنفذ ذلك.

--لم يحدث هذا أبدًا.

--ولكننا نريده أن يحدث.

--ماذا تعني؟

--سنجمع الناس في الميدان ونصطحبك إلى هناك لتعترف بأن موسى قد

تواطيء معك لقتل فرعون.. تعترف على الملأ.. حينها سنعفو عنك

وننفيك بعيدًا عن البلاد وتنجو بحياتك.

ضحك العقرب كثيرًا مما أثار غضب الأمير خيان..

أمسكه خيان من قميصه المهتريء هامسًا له في تحدي:

--لن تنال الموت حتى تعترف بذلك.. أعدُك بذلك.

تركه وهمّ بالخروج.. لاحقه العقرب مناديًا:

--أيها الأمير.. قل لفرعون أن يحرق الطاغوت ويتوب لرب موسى قبل فوات الآوان.

توقف خيان والتف له مبرق العينين:

--ماذا؟

--السجود للشيطان مهلكة ولن يمنحه الخلود.

لم ينطق خيان بعدها بشيء.. تركه وخرج مصاحبًا للجنديين.

صرخ العقرب مقاومًا ضعف صوته:

--قل لهذا الأحمق أن اتباعه الشيطان سيدمر الكون بأكمله.

وعادت العتمة من جديد تغزو زنزانته.. يومان جديدان من دون عذاب.. ادرك أنه لن يتسنى له تغيير مجرى الزمن.. سيموت فرعون غرقًا بعد إطلاق اللعنات.. وستكرر عبر الأزمان مرورًا بتلك القرية البعيدة في الاقصر.. قرية القرنة القديمة.. حتى تُعلن قري النهاية كما حدث في زمانه.. أنه هنا فقط ليعرف شيئًا واحدًا.. كيف يُنهي تلك اللعنة؟ كيف يتتبع تلك الفتاة؟ مازال ينتظر.

كاذب من يتخيل أنه قادر على تغيير التاريخ.. ما مضى انتهى ولكنه يحمل الكثير من الأسرار بكشف أحدها قد تنجو البشرية بأكملها.

سيقابل فرعون لا محالة.. سيخبره رسوله الأمير خيان بما قاله عن سجوده للشيطان.. سيثير ذلك فضوله ليعرف من أين له بتلك المعلومات؟ سيقابله.. وحينها سيقترب أكثر من هذه الفتاة المنشودة.

في اليوم الثالث أزال أحد الجنود العودين الخشبيين عن عينيه.. اصطحبه بعض الجنود إلى مكان أخر أكثر اتساعًا.. زنزانة عامة.. كانوا يجرجرونه إلى هناك بينما غط العقرب في نوم عميق قبل أن يلقوه في تلك الزنزانة مع العوام ومجرمي عصر فرعون.

تتابعت الأيام والعقرب لا يفيق حتى ظن البعض أنه قد فارق الحياة ولولا أنفاسه المتتابعة وحركة صدره لأمروا بدفنه.

فتح العقرب عينيه مجددًا عابرًا طوفانًا من الآلام لا تُحتمل.. نظر حوله.. إنه في زنزانة عامة.. عدد كبير من المساجين كثيفي اللحى مهترئي الملابس منتني الروائح.. يبدو أن فرعون لم يأبه له وأن سجنه سيطول هنا..

لم يصدق ما تراه عيناه في هذه اللحظة.. نهض واقفًا واتجه ناحية أحد حوائط الزنزانة..

إنها نفس الرسمة لتلك الفتاة على الحائط.. فتاة اللعنة.. تخيل للحظة أنه مازال في المقبرة يطالع صورتها على الحائط.. ولكنه في زنزانة في سجن زويرا في عصر فرعون أمام نفس الصورة بتفاصيلها وكأن راسمهما واحد.. تعجب مما يرى..

شخص ما مستغرقًا في إنهاء رسمها ويوقع أسفلها وكأنه انتهى منها للتو.. قرأ توقيعه هامسًا:

--سامري.

****

20 فبراير 1910

(حديقة الأزبكية)

جلس يحيى عبد النور بركات لساعات في جوار حديقة الأزبكية على أحد الرُصفان لا يصدق ما قاده القدر ليكتشفه.. في يده وثيقة تثبت برائته من كل التهم المنسوبة إليه.

حينما طالع تلك الصورة المُعلقة على حائط مكتب شوقي المانستيرلي تعجب كثيرًا.. ما الذي يجمع هؤلاء مع أحمد عز العرب في صورة واحدة؟

هرع ناحية تلك الخزينة المفتوحة باحثًا عن أي شيء يصدق حدسه في تلك اللحظة..

ليجد مجموعة من الأوراق يتوسطهم وثيقة من ورقتين كُتبت بخط اليد وكأنها عقد إتفاق:

--إنه في يوم الأول من يناير عام 1910 اجتمع المندوب السامي البريطاني

الدون غورست معي أنا شوقي المانستيرلي لمناقشة بعض الأمور من بينها

انشاء منتجع سياحي ضخم في مدينة الأقصر بالقرب من وادي الملوك

المكان الدائم للتنقيب عن آثار القدماء.. وبالرغم من بعض المعوقات

كرفض العمدة متولي زيدان والمأمور منصور المليجي بيع الارض

لمندوبنا في القرية السيد جون انطوان ولكنني كلفت أحد ضباطنا الموالين

للانجليز في نظارة الداخلية اليوزباشي أحمد عز العرب بإنهاء تلك

الأزمة ورتبت ميعادًا له في صحبتي أنا وجون انطوان لمقابلة

المندوب السامي وعليه قام الأخير بالآتي ذكره:

1-تواصل أحمد عز العرب مع موافي ابن العمدة المشار إليه وأبدى موافقته

على تنفيذ المطلوب.

2-قتل العمدة والمأمور في حادث مجهول بعد انتداب عز العرب في القرية

إدعاءً برغبة النظارة في تحجيم تجارة الآثار هناك.

3-ضمان انتقال ثروة العمدة لابنه موافي ليتثني له البيع لنا من خلال

مندوبنا جون انطوان.. والصاق تهمة القتل تلك إلى مجهول.

4-تزوير عقود بيع من منصور المليجي لنا بعد التأكد من معلومة

انقطاع نسله وورثته كما ورد إلينا.

5-تهجير أهالي القرية وطردهم بمعرفة الضابط المذكور وموافي زيدان العمدة الجديد.

وقد أقر كل من أحمد عز العرب وجون انطوان بدورهما في تلك المهمة ووقعا على ذلك.

وثيقة تنهي أزمته الأولى.. ثُلة من المجرمين كانوا وراء تلفيق التهمة إليه.. ولكن لم يُذكر هنا حرق القرية.. ادرك يحيى بركات هنا أن البند الخامس من هذه الإتفاقية تركت المجال لعز العرب وموافي في اختيار الطريقة المناسبة لطرد الأهالي.. لقد قررا حرقهما.. لقد اختارا أبشع الطرق.. ثارت الدماء في جسد بن بركات وبرقت عيناه من هول المفاجأة.. هذان المجرمان قتلا عائلته وأهله أجمعين من أجل هذه الوثيقة المأفونة.

عزم على الإنتقام بنفسه.. سيثأر للجميع بيديه.. لن يُسلم نفسه إلى الشرطة ويبلغ عنهم بهذه الوثيقة.. لن يشفي غليله القبض عليهما.. ولكن من قتل جون انطوان وشوقي المانستيرلي؟

وما علاقة كل ذلك بتلك اللعنة التي يبحث عنها؟

يبدو أن الشيطان له أيادي من البشر كهؤلاء ينفذون مكايده ورغباته.. لقد لُعنت قريته حقًا بسبب تلك المومياء الطليقة فكان جزاء أهلها نابشي القبور الحرق بأيدي هؤلاء المجرمين.

إنهم وسيلة فقط لا غير.. عليه بالعثور على تلك المومياء بأية طريقة.. عليه بالثأر من عز العرب أولاً ثم موافي زيدان.. ولكن قبل كل ذلك عليه بإبلاغ صديق عمره محمود عبد الستار بمصيبته الكبرى.. لقد ماتت حبيبته الوحيدة.. يعرف أنه قد ينتحر ورائها.. لن يتركه بمفرده.. عليه بالعودة إلى البيت بأسرع وقت.

****

وقفت زينة زيدان أمام مرآة فخمة ترتدي ملابسها الأنيقة في فيلا البرنس يوسف فتحي..

ذلك الرجل المُنقذ لها تلك الليلة من ذلك الحيوان في بيت فتكات.. اصطحبها إلى بيته منهارةً وأخذ في مواساتها ورعايتها لأيام تغير فيها كل شيء حولها.. لمست حنانه وعطفه الشديدين ومآساته بموت زوجته بمرض السرطان.. لم يمسسها طوال هذه الفترة وأخبرها بأنها في مأمن معه وأنها غير مطالبة بأي شيء.. فقط عليها أن تؤنس وحدته في هذا البيت الموحش.

أغدق عليها بالهدايا والملابس الغالية.. اصطحبها في حفلات علية القوم والنبلاء.

باتت زينة أو كما اصبحت"ليندا ميخائيل" فتاة من الطبقة الراقية.. مزق بيديه ذلك التصريح الملعون كفتاة ليل واستخرج لها أوراقًا تثبت شخصيتها الجديدة بمعرفته.. لم يسئلها عن ماضيها ولا قصتها المجهولة.. كان بمثابة خاتم سليمان بالنسبة إليها.. احبته كثيرًا.. وكانت هي بمثابة طوق النجاة بالنسبة إليه من أحزان كادت تُهلكه مخمورًا في بيوت الهوى والخمارات.

لمست ذلك الصليب المتدلي في رقبتها.. صليب جون انطوان.. ابتسمت متعجبة:

--وكأنه يفتح لي الأبواب المُغلقة.

ادارت الجرامافون على موسيقا بحيرة البجع.. والتفت في فستانها في فرحة وسعادة.

****

(بيت محمود عبد الستار- رمسيس)

أشعل عز العرب سيجارته مترجلًا في بيت ذلك الصحافّي المشترك في اغتيال رئيس وزراء مصر بطرس غالي بعد ساعتين من الحادث.. مات الرجل متأثرًا بجراحه.

قضية كبيرة ثار لها الإنجليز وانقلبت البلاد في غضون دقائق بعد إعلان وفاته.

كُلف عز العرب بتفتيش بيته والبحث عن أي خيوط قد توصلهم إلى أعضاء ذلك التنظيم السري وكذلك كُلف غيره بتفتيش بيت المتهم الأخر واضحت نظارة الداخلية خلية نحل معلنين حالة عالية من الطواريء.

جرائد وكتب وأوراق ومكاتبات بينه وبين الجريدة التي يعمل فيها.. تقارير صحفية وأخبار ومقالات مناهضة للإنجليز يبدو أن الجريدة قد رفضتها لأنها لم تنشر من قبل كما دوَّن بخط يده عليها.

وكانت المفاجأة تلك الخطابات المُوقعة بإسم يحيى عبد النور بركات.. العشرات منها في صندوق خشبي صغير.. إنه بمثابة كنزًا بالنسبة إلى عز العرب.. يبدو أن فريسته على وشك السقوط.. يساعده القدر دائمًا في الإنتقام.. ابتسم عز العرب كذئب انهكه المرض وسط نوبات من السعال المستمر.. نادي على أحد الجنود وأمرهم بالإنسحاب وإخلاء المكان عن بكرة أبيه.. يريد كل شيء هنا طبيعيًا.. وجلس هو في غرفة النوم في جوار الحمامات الثلاثة الميتة في انتظار تحقيق حدّسه.. يحيى بركات جاء إلى القاهرة بحثًا عن زينة.. إنه يمتلك الذكاء الكافي ليتوقع أنها لازمت جون انطوان إلى هنا.. بالأخص أن ذلك السوار المكتوب عليه إسمه قد نُشر خبرًا عنه في جريدة الوقائع المصرية.. لقد قرأها وشد رحاله إلى هنا.. إلى هذا المكان.. بالتحديد في هذه الغرفة في بيت صديقه القديم ليساعده.

دق ناقوس المواجهة.. شخص ما يفتح الباب الخارجي وينادي:

--محمود.. محمود!

إنه يقترب بقدميه.. كتم سعاله ووقف شاهرًا مسدسه.. فتح يحيى بركات باب الغرفة.. ليجد غريمه جاء بنفسه لنهايته.. وقف الاثنان أمام بعضهما من جديد والإنتقام يفترس نفسيهما بشراسة.. يحيى يريد الثأر لأهله من ذلك المجرم المُرتب لكل شيء.. وعز العرب يريد الثأر لقلبه المجروح.

****

(عصر فرعون- سجن زويرا-الزنزانة)

--الحب مقبرة العشاق.. إن تحب يومًا فلتستعد للعذاب أبد الدهر.

قالها ذلك الرسام البارع شاردًا.. سامري.. مغالبًا دموعه أسفل تلك الرسمة الخاصة بفتاة اللعنة.. جلس تحتها وجاوره العقرب متوددًا إليه:

--أنت رسام بارع.

--وعاشق مذبوح.

--هل تمانع في أن تقص لي حكايتك؟

نظر له سامري ليلحظ وجوده لأول مرة.. سئله:

--من أنت؟

--أنا سجين جديد.

--وما تهمتك؟

--الشروع في قتل فرعون.

تهللت أساريره كثيرًا واعتدل في جلسته:

--أحقًا فعلت ذلك؟

--لم أعُد متأكدًا من أي شيء يحدث لي.

--أأنت مصري؟ أم من بني اسرائيل؟

--ألا يدخل هذا السجن غيرهما؟

--نعم.. انظر حولك.. لقد تحول هذا السجن إلى معتقل سياسي في عصر فرعون..

من يسرق ويعتدي على الغير يغفرون له ويسامحونه.. ولكن من يخرج عن دين فرعون

يلقونه هنا في غيابة السجن.

--ماذا تقصد بدين فرعون؟

--تبدو غريبًا عن بلادنا.

--دعك مني وأخبرني قصتك.

--أنت تريد القصة منذ بدايتها.

قالها ساخرًا متوجعًا بآلام نفسية لا حصر لها.

--فلتتحدث يا صاح.. كلي آذان صاغية لك.

--فرعون.. قصة لا يقوى أحد على ذكرها.. قصة محيت من التاريخ بفعل فاعل..

لتموت الحقيقة مع الأيام وتُدفن مع من عايشوه.

--أي حقيقة؟

نهض سامري وبدأ في قصته في حماس واجتمعت المساجين حولهما رويدًا رويدًا:

--فرعون.. ذلك الفتى البغيض راعي الأبقار من الحقاوخاسوت.. أولئك الغزاة الّذين تمكنوا

من حكم مصر منذ أمد بعيد لضعف ملوكنا المصريين ولكثرة الصراعات بينهما..

لم تكن دماء فرعون أبدًا من دماء ملوكهم ولا ينتمي للعائلة الملكية منهم..

في قرية بعيدة عن العاصمة أواريس كان والده يرعى أبقار قومه..

وأمه تدعى "راعونة".. عاش والده مائة وسبعين عامًا من دون أن يرزق بولد

حتى صار حاسدًا لأبقاره التي تضع عجولًا بينما حُرِم هو ذلك..

رأى في المنام أنه سيلد ولدًا سيكون من أهل جهنم..

رأى شيخًا عجوزًا يخبره بذلك ثم صحا من نومه على امرآته تخبره بأنها

تحمل في أحشائها طفلًا منه.. بُهت الأب كثيرا ومات بعدها بأيامٍ قليلة.. ووضعت راعونة ولدها.. وأخذت في إرضاعه وتربيته حتى كبر..

فأسلمته إلى النجاريين وأتقن صناعة النجارة.. لكنه ولع بالقمار وبات شابًا بغيضًا سيء الخلق والطباع واختلف مع أمه وتشاجر معها كثيرًا حتى ترك قريته وهاجر إلى قرية أخرى..

واشتد عليه الفقر والعوز حتى اصبح ينقب البيوت ويسرق ما تطوله يداه..

وظل على ذلك حتى قابل أحد فرسان الحقاوخاسوت الّذي جمح منه فرسه في الطريق فقفز فرعون عليه وضبطه بلجامه.

فقال له الرجل: أراك جلدًا قويًا.. فاتخذه سائسًا.. وظل يخدم الرجل حتى مات ولم يكن له وارث فأخذ فرعون جميع ماله وعاد إلى أمه.. وأكل فرعون جميع ذلك المال وخسره في القمار.. واشتد عليه الفقر من جديد.. فرحل إلى العاصمة أواريس وطرأت له فكرة أن يجلس على مقابر العاصمة ويطلب من أرباب الجنائز قدرًا بسيطًا من المال.. حتى جمع مالًا عظيمًا.. واتخذ أعوانًا.. حتى ماتت ابنه الملك الحاكم للبلاد آنذاك.. وكان ملك مكرمًا لبني إسرائيل احترامًا لذكرى يوسف نبي الله وتكريمًا لما فعله من أجل إنقاذ البلاد فيما مضى.

المظلومين فقط حينها هم المصريين المسلوبة بلادهم بقوة عسكرية قوية كالحقاوخاسوت

الممتدة بين مشارق البلاد ومغاربها وتمركزت القوات المصرية في الجنوب في طيبة.. ولا يخطر في بالهم أبدًا الوقوف أمام تلك القوة العسكرية مهما حاولوا.

ومرت جنازة ابنة الملك إلى المقابر ولغباء أحد أعوان فرعون حاول أخذ خراج مرور الجنازة من جنود الملك.. وحينما نمى ذلك إلى مسامع فرعون صفعه ووبخه بشدة ولكن الأمر كان قد وصل إلى الملك وأرسل جنده للقبض على فرعون.. وهناك في القصر الملكي خطت أقدام فرعون لأول مرة البلاط الملكي مقيدًا ذليلًا.. ودار بينهما نقاش سريع.. وبدلًا من أن يأمر الملك بقتله.. أعجب به وبفكرته في إتخاذ ضرائب على الموتى.. وعُين فرعون مسئولًا لجمع تلك الضرائب.. وجمع مالًا وفيرًا واقترب من الملك حتى صار أقرب الأقرباء إليه وآمن له حتى أنه كان يخرج معه ليلًا من دون حراسة ليترجل حول القصر ويتبادل معه الحديث..

وفي أحد الليالي باغت فرعون الملك وقتله.. واستولى على العرش وفتح الخزائن ووضع التاج على رأسه وأرسل إلى البلاط الملكي وأغدق عليهم المال فبايعوه..

وصار فرعون ملكًا على البلاد.. والآن يدعى فرعون أنه الرب.. سحقًا له ولإدعائه!

كانوا يستمعون له بإهمام شديد على الرغم أنها لم تكن المرة الأولى التي يقص فيها سامري تلك الحكاية على مسامعهم.. وقف العقرب متعجبًا فلم يتخيل يومًا أن تلك القصة التي طالعها من قبل في قراءاته لكتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب" لمؤلفه شهاب النويري حقيقية.. لقد وردت في كتابه نقلًا عن مؤلف عربي قديم عاش في القرن الثامن الميلادي اسمه " أبو الحسن الكسائي".. لم يتوقع أبدًا صدقها واعتقد أنها دربًا من الأساطير المتوارثة.. سئله مشدوهًا:

--من أين لك بهذه القصة يا سامري؟

--من كتاب معلمي المقتول.."أسرار البلاد في أيام فرعون"

--مقتول؟

--نعم.. أمر فرعون بقتل كل العلماء وحرق كتبهم ممن عايشوا انقضاضه على حكم البلاد..

بينما تمكّن معلمي العجوز من الهروب لسنوات عديدة وآلف كتابه ليعرف الناس الحقيقة..

تعرفت عليه في قريتنا ذلك الشيخ الوحيد البهي الطلة الموحد بالله كبني اسرائيل..

من النادر في هذا الزمان أن تجد مصريين موحدين فقد عادت عبادة آمون لقوتها من جديد بعد وفاة يوسف وعاد المصريون لمعتقداتهم القديمة..

ولكن معلمي كان من القلائل.. من اعتنقوا دين التوحيد ودعوا له سرًا..

وكنت أحد المؤمنيين له.. وزوجتي الحبية.. في قرية صغيرة تقتات قوت يومها بالكاد ولكننا كنا راضين بما قسمه الله لنا..

حتى تغير كل شيء.. عثرنا على معلمي العجوز مذبوحًا في عقر داره واختفي كتابه تمامًا.. شعرت بالخوف الشديد.. وفي نفس الليلة قُبض علينا مع مجموعة من الناس ممن اعتادوا التردد على الشيخ العجوز.

--أسرار البلاد في أيام فرعون!

بُهت العقرب لما يستمع إليه.. سئله بشغف شديد..

-- هل قرأت محتواه؟

--نعم.

--وماذا كتب أيضًا في هذا الكتاب؟

--سرد جميع القصص المتواترة منذ القدم عن الإنسان ونشأته..

عن مصر وأحوالها السياسية والاقتصادية والدينية..

عن الرب والإيمان به عبر الأزمان الفائتة..

عن نبؤتين وما تحقق منهما وما لم يتحقق.

--هل تخبرني المزيد؟

--عن أي شيء؟

--عن النبؤتين.

--النبوءة الأولى هي نبوءة نفرتي..

في زمان الخراب.. سيأتى ملك من الجنوب.. وهو ابن نوبية الأصل.. سيوحد البلاد وينشر السلام فى الأرضين.. ليس من سلالة الحاكم القديم.

--وهل تحققت؟

--نعم.. يقال أنه يقصد الملك امنمحات الأول.. فقد استولى على الحكم

في وقت انتشر فيه الصراع على السلطة وضعفت البلاد وعمَّ فيها الخراب

والفقر والصراعات.. وفي عهده قويت مصر وخرجت من أزمتها على يديه.

--والنبوءة الثانية؟

--نبوءة من مجهول:

"في زمان ليس ببعيد.. سيسجد ملك للشيطان في عهد أحد الأنبياء

وسيكون أول من يسجد لإبليس.. وسيمنحه تعاويذًا سحرية تحقق له

المراد مهما كان.. وتمنحه الخلود كما قال.. ولكن السحر سينقلب..

وستغدو اللعنات أسرابًا.. وستطول اللعنة كل من يقرأ تلك التعاويذ وستتراكم

عبر الأزمان حتى يُعلن الفناء"

انفض السجناء من حوله وكأنهم يعلنون كفرهم بحكايته ويعتبرونها من ضرب الخيال والهذيان.. ولكن العقرب يصدقه.. يقترب منه ويربت على كتفيه ناظرًا في عينيه:

--لقد صدقت النبوءة وتحققت.

--كيف؟

--ليس الآن.. أريدك أن تخبرني عن صاحبة تلك الصورة.

--إنها حور.. زوجتى ومعشوقتي.. من كانت بمثابة الدنيا بالنسبة لي.

--ولكنني رأيتها ضمن ملأ فرعون في حفل عيد الزينة.

--لقد اصطفاها الأمير خيان لنفسه بعد القبض علينا..

ذلك اللعين.. ابن الملك أبوفيس حاكم الشمال..

أقرب أصدقاء فرعون المقيم معه في القصر الملكي بعيدًا

عن والده.. من يوكله فرعون في أمور عديدة ويفضله عن وزيره هامان

في بعض الأحيان.. جاء إلى هنا ليساومني طالبًا مني أن أذهب

إليها وأخبرها أنني لا أريد حبها بعد الآن وأرغب في فراقها..

حتى يستحوذ هو على قلبها وجسدها بعدما امتنعت عنه..

صارحني بأنه قد أحبّها منذ أن رآها صدفةً ولكنها لا تستجيب إلى رغباته

حتى بعد أن بات يعذبها ويمنع عنها الطعام والشراب لأيام..

جاء إلى هنا فارغ الوفاض يجر أذيال الخيبة بعد أن حاول مرارًا وتكرارًا معها..

عرض عليها المال والجاه والزواج ولكنها رفضت لأجلي..

أخبرني أنه لا يريد اغتصابها.. إنه يريد قلبها قبل جسدها..

ومقابل ذلك سيطلق سراحي ويغدق عليّ بالأموال..

رفضت.. شدد في تعذيبي.. شددت في الرفض حتى نفذ صبره..

وتركني هنا أُغالب أحزاني وأُصارع العتمة والأشواق تقتلني..

لا أعلم هل استجابت له أم لم تستجب وحافظت على عهدي معها؟

هل سلمت له جسدها وقلبها؟ أم اغتصبها في لحظة يأس من موافقتها به؟

أقلت أنك رأيتها في ملأ فرعون؟

وكأنه استمع إلى هذه الجملة للتو.. فأجابه العقرب مُشفقًا:

--نعم.

سقطت دموعه من دون توقف وجلس تحت صورتها متألمًا حزيناً.. جلس في جواره العقرب مربتًا على كتفه.. لقد دُبّ الحين خنجرًا مسمومًا في قلب سامري.. في هذه اللحظة هوَّت مقاومة سامري معتقدًا استسلام حبيبته إلى خيان.. لكن كل ما يفكر فيه العقرب الآن بعد أن أدرك تلك النبوءة المجهولة وتأكد من مؤامرة إبليس ضد الانسان بدءًا من ساجده الأول فرعون حتى زمانه.. حُلّت الألغاز وبقى شيئًا واحدًا عليه بتتبعه.. ما علاقة حور هذه الفتاة حاملة اللعنة بكيفية إنهائها؟ هل ينتهي كل شيء بحرقها؟

كلا.. غير صحيح.. عليه اجابة ذلك السؤال الملح.. ما معنى حرق حيّها وميتها؟

النبشة الثامنة

(الخروج)

(عصر فرعون)

هل كره الله فرعون؟

سؤال مباغت قد يجيب عنه البعض بنعم.. ولكن في الحقيقة لم يكرهه الله.. بل حاول بكل الطرق ايقاظه من غفلته.. أرسل له موسى وهارون بالنصح والإرشاد.. وأرسل عليه الآيات التسع لعله يؤمن ولكنه طغى وتولى.. إن الله يحب الإنسان منذ أن خلق آدم.. يغمره بالنعم والغفران مهما بلغت ذنوبه حد الكفر.. قد يمحو عمرًا من الخطايا مقابل سجدة واحدة بين يديه.. ولو كان فرعون استجاب لدعوة موسى لثبُت للدنيا ذلك العشق الخفي بين الله وبني البشر.. الحب الذي يبغضه الشيطان.. من كان يتمناه إبليس قبل خروجه عن طوع الله.

من لُقب بطاووس الملائكة قبل عناده من فرط الطاعة والعبادة لله عز وجل.. مخلوق من الجن يتفوق على الملائكة.. ذلك الزهو المالىء لنفسه بعشق الله قد تبدد بمجرد أن شاهد ذلك المخلوق الجديد.. الإنسان.. أهذا أجدر منه بروح الله؟

ذلك الخطَّاء السفيه يسلب منه كل شيء.. واشتعلت نيران الحقد منذ فجر التاريخ..

من العاشق الأول إبليس إلى من سرق معشوقه الإنسان.. حرب دائرة أحدهما لا يملك غير الدفاع والإحتماء في أحضان الرب من الغازي الأكبر إبليس وزمرته.. وسُعرّت الجحيم للمهزومين والمستسلمين للواء الشيطان.. ومع ذلك قد يغفر الله كل شيء في لحظة.. قد يضرب جيش الشيطان في مقتل.

تتابعت الليالي في بطء شديد في تلك الزنزانة الممتلئة بالمساجين.

شغل تفكير العقرب كثيرًا تلك الرحلة التي عايشها من زمن لأخر ومغزاها.. رحلة لا تخضع لأي منطق أو عقل.. ضابط شرطة تتعرض بلاده والعالم أجمع للعنة تسبب تداخل للأزمنة يمتنع فيها الموت عن حصد الأرواح في البداية ثم يأتي موكبه في شراسة متناهية ويموت أغلب سكان الارض.. لعنات تتعلق بمنقذ ومُخلِّص وهناك احتمالان.. إما يحيى عبد النور بركات أو محمد عبد الله العقرب.. فيغوص في بركان من دون موت ويجد نفسه حبيس زمان قديم يسبقه بأكثر من مائة عام.. ويتقصى قصة المُخلِّص الأول ويتابع تلك اللعنة التي تحرق قريته بأكملها حتى يدرك أن السبب مومياء طليقة في مقبرة على أطراف الصحراء المجاورة لتلك القرية.. وهناك يمر عبر دروب عجيبة إلى بحور من الدماء في منتظر الجحيم ويشهد حفل الشياطين احتفالًا بقرب الإنتصار.. والحرب بين بني البشر والشيطان للوصول إلى سر الكهنوت.. سر قوة الله ومفتاح جنته.. ولعنات تنتهي بحرق حيًّها وميتها.. ثم تقذفه الأقدار إلى زمن فرعون.. مهد السجود لإبليس.. ويُزج به في سجن زويرا مع عاشق المومياء.. أو

من ستصير مومياء ملعونة فيما بعد.. سامري وحور.. وقصتهما مع خيان.. الأمير القريب لقلب فرعون.. الساجد الأول.. حامل التعاويذ الملعونة سبب اللعنات.

كادت رأسه أن تنفجر من كثرة التفكير والتحليل لما حدث منذ البداية.. ترى ماذا يخبيء له القدر في الأيام القادمة؟

وبدأت لعنات فرعون تتابع الواحدة تلو الأخرى.. نقلها لهم الجنود الحارسين لسجن زويرا مشدوهين.. لم يكن لهم حديثًا غيرها.

ألاعيب الساحر الكبير موسى وأخيه هارون لإنتزاع السلطة من فرعون كما أشاع الأخير بين الناس.. نيل تملؤه الدماء وجراد شرس يأكل الزروع وطوفان وبعوض وجيش من الضفادع يهاجم كل مكان وموت الأسماك وانتشار الجدب والعطش ومُلِئت الوجوه بالبثور والدمامل حتى فرعون وآله لم يسلموا من تلك العلامات.. وليالٍ من الظلام والبرد وسحابة من الرماد فوق العاصمة غطت سمائها حتى آخر العلامات موت الأبكار.. لم يخل بيتًا في أواريس من تلك العلامة المؤلمة الناحرة لأرواحهم المتعلقة بأطفالهم.. لقد قتل موسى وإلهه المزعوم الأطفال.. آمر فرعون جنوده ليخرجوا في الاسواق وينادوا على الناس:

--يا أيها الناس.. لقد قتل موسى وإلهه أطفالنا.. بئس ما يدعو إليه موسى.

وفي كل علامة طغت الفرحة قلب سامري والسجناء.. كانوا يدعون من أفئدتهم المهزومة أن ينتصر موسى.. وأن تُلحق اللعنة بفرعون وزمرته.. أن يحترق الحقاوخاسوت بنارِ ما تجرعوه بسببهم في العقود الماضية وإن احترقوا معهم.

يفضل المرء منهم الموت على أعتاب عذاب أولئك الغزاة على العيش بسلام في حضرة الذل والهوان.. وكأن إله موسى قد قرر تحريرهم بعد أن استعبدوا وسُلبت كرامتهم وحريتهم منذ آمد بعيد.. حتى أولئك الملوك والأمراء المحصنين في طيبة في الجنوب استعدوا بجيش قوي اشتعد عوده في الفترة الأخيرة وانتظروا اللحظة المناسبة للإنقضاض على الحكم.. لقد بدا للجميع ضعف الهكسوس بعد كل هذه الكوارث المتتالية في أقل من عام.. كان على رأسهم الملك سقنن رع وابنيه كاموس وأحمس.. من تولوا تدريب الجنود المصريين على أعلى مستوى في غفلة من الهكسوس ورجالهم في طيبة.

ما كان يشغل بال لسامري هو الإنتقام من خيان.. ولو سقط فرعون لسقط خيان.. تخيل ارتباكه وغيظه جراء تلك الأحداث وهو يجالس فرعون باحثين عن مخرجًا من دون جدوى.. ضمدت جراحه النفسية لمجرد الإعتقاد بقرب سقوطهما.. لقد جاء من هز عرش الطغاة.. فليحيا رب موسى.. فليحيا الله.

توطدت العلاقة بين العقرب وسامري طوال تلك الفترة وباتا صديقين متشاركين في الرغبات والأهواء.. فكلاهما يكره فرعون وملأه.. كلاهما يتمنيان الخروج من سجن زويرا.

دُق ناقوس الخروج.. وأعلن القدر جولة النهاية في هذه الرحلة العجيبة.

مر عام في هذه الصراع الوطيس.. وفي عيد الزينة الجديد.. اختلفت الأمور كثيرًا عن العيد الماضي.. لقد أوشكت هزيمة فرعون.. لم يدرك أن تلك الشمس في سماء العاصمة هي أخر ما ستراه عيناه ذلك اليوم.

خرجت بني إسرائيل بقيادة موسى وهارون بغتة بعدما جائهم الأمر من الرب بالخروج في عيد الزينة.

حشد فرعون جيشه عن بكرة أبيه وقرر إبادة بني إسرائيل وليحدث ما يحدث.

والسؤال المنطقي هنا:

لماذا لم يقرر فرعون قتل بني إسرائيل ونبيهم منذ اليوم الأول؟

ربما سؤال: لماذا لا يتوب إبليس وينتهي كل شيء؟

يمنحك نفس الإجابة.. الكبر.. الغرور بالإنتصار.. اعتقد فرعون أنه الغالب والمسيطر في النهاية.. بل ربما تخيل أن موسى وهارون سيتبعونه ويسجدون له في مشهد مهيب في عيد الزينة ويتوجونه إلهًا معترفين بخسارة إلههما.

انطلق جيش فرعون تاركًا الملك أبوفيس نائب الغيبة له في العاصمة أورايس حتى يعود من تلك الحرب الغير متكافئة.. جيش جرار سيقطع رؤوس العبيد ورعاة الأغنام.. ترك أبو فيس وسط بعض الفرق من الجيش المتبقية لحماية العاصمة بعدما تسربت أخبارًا تفيد باستعدادات خفية لجيش طيبة تحت قيادة سقنن رع لشن حرب ناحية العاصمة.. ثار خيان لذلك بعدما تشاور مع فرعون قبل خروجه بدقائق واستقرا على خروج حشد من الجيش الهكسوسي المتبقي معه في العاصمة ناحية طيبة لتأديبهم.. وخرج خيان في نفس اليوم على رأس الجنود في اتجاه طيبة.. وانقسم الجيش لفرقتين أحدهما سيبيد بني اسرائيل الهاربين ناحية الشرق متخذين طريق حورس الحربي على طول الطريق الموازي لقناة سيزوستريس والأخر ناحية الجنوب محاذاة للنيل.. وبقى أبوفيس يدير البلاد في هذه المرحلة الحرجة في قصر فرعون ومعه ماتبقى من الجيش تأمينًا للعاصمة.

عربة تجرها الخيول يدق أصحابها باب سجن زويرا.. فتح أحد الجنود الباب بعدما نادى قائدها:

--بأمر الرب فرعون افتح الباب.

كانت حور.. فتاة اللعنة.. على متن تلك السيارة الملكية.. تحمل رسالة مختومة من فرعون بذاته تقتضي بتيسير مهمتها وتنفيذ أوامرها.. لقد تمكنت حور من خداع خيان وسرقة ختم فرعون منه لتنفذ خطتها في اللحظة المناسبة.. وهاهي قد جاءت.. لا فرعون ولا خيان وحالة من الإضطراب الشديد تصيب العاصمة بأكملها.. لقد حانت اللحظة المناسبة.

مشت في بهاء وغرور إلى غرفة حاكم السجن السيد لاهون.. أمرته بإطلاق صراح سامري..

وطلبت منه أن تبلغه بنفسها بذلك.. والتقى الحبيبان بعد طول عذاب.. تركهما السيد لاهون تنفيذًا لأمر حور وخرج.. اقتربت منه وعيناها مغرورقة بالدموع.. تلك اللحظة التي حاربت من أجلها.. تحملت الكثير والكثير انتظارًا لها.. لحظة اللقاء.. ارتمت في أحضانه باكية.. قبلته كالمجذوبة.

--اشتقت إليك يا حبيبي.. اشتقت إليك.

--اعتقدت أن الموت اقرب منك.

سقطت دموعه هو الأخر غير مصدقًا في لقائها من جديد.. ضمته بقوة:

--لا تقلق سينتهي كل شيء.

--كيف جئت إلى هنا؟ أسلمتِ نفسك إلى ذلك الشيطان خيان؟

--كان لزامًا عليّ خداعه لأتمكن من الهروب في صحبتك.

--أسلمتِ له جسدك؟

قالها والدموع تتساقط من عينيه مرتعش الصوت مُختنقًا.

--فلتذهب أجسادنا إلى الجحيم..

إن قلبي لم يمسسه غيرك.

مدت يدها ومسحت دموعه.. نظرت في عينيه في حنان منقطع النظير.

--سنخرج الآن ونبتعد ونضمد جراح أرواحنا بعيدًا عن هنا..

ستمر رغم العذاب.. أليس كذلك؟

--أحبِك.

--أحبّك.

تلاقت شفاههما في لقاءٍ ظن أنه مستحيل.. وضعت حور الخطة جيدًا واختارت لحظة الإنطلاق.. لم يخرج سامري من سجن زويرا من دون صديقه المُقرب.. العقرب..

واعتلا الثلاثة تلك العربة التي تجرها الخيول.. وفُتح لهم باب الخروج لينطلقوا في رحلة المجهول.. نظر العقرب إلى حور تلك الفتاة الموشكة على الموت والتحنيط.. هو فقط من يدرك ذلك.. من يعلم الغيب وقسوة القدر في تفريق الأحباء.. سيُطعن قلب سامري ويصير العذاب أرثًا لا ينقطع.

خططت حور للفرار ناحية طيبة.. إنه المكان الوحيد في مصر البعيد عن سيطرة الهكسوس.. وعلى الرغم أنها تعرف بتحرك جزء من الجيش الغازي بقيادة خيان ناحية طيبة ولكن لا مفر من الإنضمام إلى خندق المصريين في تلك الحرب الشنعاء.

-- سقتن رع وابنيه كاموس وأحمس سيحاربون خيان وجنوده.

قالتها حور أثناء الطريق الصحراوي المهجور الذي يعرف السائق المصري معالمه جيدًا..

فقد اتفقت حور معه على أن يكون مرشدهم في هذه الرحلة.. تنهد سامري سعيدًا ناظرًا ناحية الأفق.

--سننتصر.

تعانقت أياديهما والعقرب ينظر لهما متأثرًا مبتسمًا يحاول أن يخفي حزنه على فراقهما المنتظر.. وقف سامري مُهللًا بصوت جهوري يشق الصحراء:

--سننتصر.

غربت شمس ذلك اليوم والعقرب يعرف أن فرعون وجنده قد ابتلعهم يمّ سوف غارقين..

ونجا موسى وقومه خارجين من مصر بسلام في رعاية الرب.

توقف ركبهم وأضرم سائقهم النيران في بعض الأعواد الخشبية بغرض التدفئة.. جلسوا يتناولون طعام أعدته حور ليكون زاد تلك الرحلة.. نظرت حور ناحية العقرب وسئلته:

--لماذا أنت صامتًا هكذا يا..؟

انتبه سامري إلى العقرب هو الأخر وسئله:

--حقًا.. لم أسئلك عن إسمك طوال هذه الفترة الماضية.

تلعثم العقرب قليلًا باحثًا عن إسم مناسب لهذا العصر قبل أن ينطقه:

--كارع.

--كارع؟

--نعم.. كارع الأول.

ضحك الإثنان بعد أن نظرا لبعضهما البعض وشاركهما العقرب في ضحكاتهما..

--أنت تقصد كا رع؟

نطقتها حور كلمتين منفصلتين.

--نعم ولكن والدتي تناديني هكذا.. كارع الأول؟

--إنه من بلاد الشمال يا عزيزتي.

--وما الذي جاء بك إلى أواريس؟ ولماذا زجوا بك في سجن زويرا؟

--جئتُ باحثًا عن العمل كالكثيرين.. وسُجنت لأنهم اتهموني ظلمًا بأنني سأغتال فرعون.

--نعم.. تذكرتك.. أنت ذلك الشخص المملوئة ملابسه بالدماء المُهاجم لمنصة فرعون في احتفال عيد الزينة السابق.

--نعم.

--ولكن لماذا امتلئت ملابسك بالدماء هكذا؟ للحق كان منظرًا مروعًا.

--من التعذيب.. لقد اعتدى جنود فرعون عليّ عندما رفضت دفع الضريبة

وكنت أحاول الشكوى له في عيد الزينة.. ولكنهم اعتقدوا أنني أريد قتله.

--لعلك فعلتها يا كارع.

--كارع الأول من فضلك.

مرت الليلة في هدوء وتؤادة.. وانطلق ركبهم في النهار التالي ناحية الجنوب.. ثلاثة أيام حتى وصلوا على أبواب طيبة.. تلك المدينة الواقعة في جنوب مصر.. أدرك العقرب من الوهلة الأولى أنه قريب من موقع قرية القرنة القديمة التي لا مكان لها في هذا الزمان.. ولكن وادي الموتى الّذي تعرف عليه هناك في هذه المدينة في ليلته الأولى يشبه كثيرًا وادي الملوك.. تلك المقابر الواقعة في غرب النيل والتي يُدفن فيها الملوك والأمراء والنبلاء بعد تحنيطهم وكذلك بعض العمال من خدام البلاط الملكي في مقابر جماعية لهم.. إنها هي مع فارق الأزمان.

تابع العقرب سير القصة في انتظار للمأساة في ترقب.. مرورًا بمقابلة الأمير كاموس وطلب العون منه وتفضله بمنح حور وسامري بيتًا وزادًا وعملًا لسامري بعد معرفة قصتهما.. وبيتًا أخر للعقرب ومشاركته في صنع أواني الفخار مع صديقه وبيعها في سوق المدينة.

--بعشرين دبنًا.. الإناء الواحد بعشرين دبنًا.

--ليس هكذا يا صديقي كارع.. البيع له أصول..

قرب قرب قرب.. اشتري ثلاث أواني والرابع مجانًا.

قالها سامري بصوت جهوري وسط السوق فتجمعت الناس حوله.. ابتسم له العقرب متعجبًا فهمس له سامري:

--لا تخبرهم السعر إلا بعد مطالعة البضاعة.

مرت الأيام وسامري غارق في بحور من السعادة مع حبيبته حور.. بات العشق دارهما والأحضان ملاذهما الوحيد.. وكأن العمر بدأ من لحظة لقائهما مجددًا بعد أن ظنا ألا تلاقيا.

وعلى ضفاف النيل قبل الغروب جلس الصديقان يودعا شمس ذلك اليوم.. استنشق سامري الهواء بشدة مبتسمًا:

--يالله.. وكأنني ولدت من جديد.

لم يجد العقرب ردًا غير ابتسامة يملؤها الحزن الدفين.. ربت سامري على كتفه مُداعبًا:

--علينا بتزويجك يا صديقي.. أنت تحتاج لمن تؤنس وحدتك.

--أتعتقد ذلك؟

--أتعرف؟ الدنيا بدون حب لا تُعاش.. وكأنها قبر مظلم لا خروج منه.

--الحبُّ.

قالها العقرب ناظرًا إلى الأفق متنهدًا..

--نعم الحب.. به تستمر الحياة.. انظر حولك.. كل ما نعرفه من كائنات حية

زوجين.. ذكر وأنثى.. عاشق ومعشوق.. وكأن الحب شرطًا لإستمراهما على قيد الدنيا.

--أعرف ذلك.

--ألم تحبّ يومًا؟

تنهد العقرب متذكرًا حبيبته فداء.. وكأنه يرى وجهها على مياة النيل:

--نعم.. عشقت إمرأة كالبدر ليلة تمامه.. كالنسيم في صيف شديد الحرارة.

--وأين هي إذًا؟

--في بلاد الشمال.

--ولماذا تركتها ورحلت؟ عذرًا فقصة البحث عن العمل هذه لا اقتنع بها..

لا شيء يستحق الفراق.

--لم يكن لديّ الإختيار.

--لا أفهمك.

--هل يمكن لي عدم الإجابة؟

--يمكنك ذلك ولكن فلتعلم أنني في جوارك يا صديقي.. قلبي مفتوح لك دائمًا..

ومهما تكون أسباب الفراق فأنا أعدك بملازمتك إلى بلاد الشمال بعد انتهاء الحرب مع الحقاوخاسوت.. لا بد من اللقاء.. لا تخرج من الجنة.

وغربت شمس ذلك اليوم والقدر يتربص بالحبيبين على مرآى ومسمع من العقرب من دون مقاومة.. يعرف جيدًا أن حور ستموت عما قريب وتنتهي قصة الحب بأبغض النهايات.. لو أن الأمر بيديه لواجه القدر مستلًا سيفًا من العشق دفاعًا عن قلوب الأحبة.. ولكن قضي الأمر.

لم يتمكن العقرب من النوم ليلًا.. ترجل مرارًا وتكرارًا في ساحات المدينة الخاوية مُقتربًا من وادي الملوك.. حاول أن يعرف ذلك الطريق المؤدي إلى المقبرة المستقبلية لحور التي ستدفن بها عما قريب.

أصوات أفراس النهر تتردد أثناء الليل الماكثة بالقرب من النيل.. الناس نيام.. حالة من السكون الذي يسبق العاصفة.. اخترق الأراضي الزراعية متجهًا ناحية الصحراء.. وقف في مواجهة وادي الملوك هامسًا:

--هنا ستمر السكة الحديدية.

نظر حوله متنهدًا.. من المستحيل إدراك طريقًا لم ينشيء بعد.. عاد أدراجه ناحية ذلك البيت الجديد الممنوح له.. مرت الايام وفي كل ليلة يحاول من دون جدوى.. حتى زفت إليهم الأخبار بغرق فرعون وجنوده وهزيمة خيان على أبواب طيبة.. وأنباء عن انسحابه في فوضى ناحية العاصمة.. بعدما عادت الجنود المصرية إلى طيبة لتلتقط الأنفاس.

وأقيمت الأفراح وانطلقت الزغاريد المعلنة الإنتصار.. وتواترت الأنباء الجديدة باستعداد الجيش المصري لمهاجمة العاصمة وتطهيرها من الهكسوس والسيطرة على الحكم في أرجاء البلاد.. عمت الفرحة أرجاء طيبة وهم يزفون جنودهم المتجهة ناحية أواريس بعد عدة ايام.

--سنسحق الغزاة.

--سنطهر البلاد من الحقاوخاسوت.

--مصر للمصريين.

--فليحيا الملك سقنن رع.

موكب حاشد للجنود الفرسان يمر وسط طيبة والناس يهللون في غبطة شديدة.. وقف العقرب في جوار الحبيبين المتعانقة أياديهما في حب وحنان فرحين بالإنتصار.

كان الجنود يرفعون سيوفهم عالية تحية للرعاة ويتقدمهم ملكهم سقنن رع وابنيه كاموس وأحمس.. اليوم يوم الجلاء.. سينتصرون لا محالة.. هذا ما يدور في بال الجميع ماعدا العقرب.. فهو يعرف أن هذه الحرب سجال... وأنها ستستغرق خمسة وعشرين عامًا من الصراع مع من تبقى من الهكسوس.. لن ينتصر المصريون بسهولة ولن يُطرد الغزاة بهذا اليسر على الرغم من ضعفهم وضياع أغلب جيشهم غرقًا مع فرعون.. فقد أعاد الملك أبوفيس الزمام سريعًا بدهاء.. حقيقة سيدركونها بعد لحظات.

أحد الجنود يهرول من خارج المدينة صارخًا:

--الحقاوخاسوت يقتربون.. الغزاة على الأبواب.

كانت خطة محكمة.. التظاهر بالإنسحاب والخسارة.. والإلتفاف للإنقضاض على طيبة..

وهجم الهكسوس من أبواب متعددة لطيبة وتحاصر الجيش المصري بغتة.. ودارت المعركة على أشدها وارتفع صهيل الخيول وصليل السيوف السافكة للدماء من الطرفين.

وارتبك العقرب متفاديًا الموت بالكاد.. واختفى الحبيبان حور وسامري في غمضة عين.. هلل العقرب بحثًا عنهما وسط ذلك الغبار الكثيف المتعالي حوله حد السماء:

--يا سامري.. يا سامري.

تناثرت الدماء على وجهه وبات الموت وشيكًا لا يفصله عنه مقدار.. تلاشت الرؤية تدريجيًا وسط الغبار.. عُميت العيون وترددت أنباء عن مقتل الملك سقتنن رع.

برقت عينا العقرب حينما شاهد عن بعد تلك المدرعة التي استقلها في بداية رحلته والجندي السائق لها يناديه:

--أيها المقدم.. جناب المقدم.

من غرقا في البركان يظهرا أمامه من جديد.. هرع ركضًا بين أرجل الخيول المتصارعة والسيوف تضل طريقها إلى جسده بأعجوبة.

وصل إلى المدرعة وركب داخلها وصاحبه السائق مغلقًا الباب.. سئله مشدوهًا:

--أين كنت؟ وكيف جئت إلى هنا أيها الجندي؟

--لا افهم أي شيء سيادتك.. منذ أن التهمتنا موجات البركان غبت عن الوعي ولم أفق غير هذه اللحظة وسط هؤلاء المتصارعين بسيوفهم.. رأيتك عن بعد فناديتك سيدي.. حمدًا لله أننا مازلنا على قيد الحياة.. أين نحن؟

نظر العقرب من زجاج المدرعة والجنود يصارعون الهكسوس في الخارج.. طائرات حربية تغزو السماء من جديد.. يرى أُناسًا يحترقون في الخارج.. إنها قرية القرنة القديمة يوم الحريق.. تذوب الوجوه وسط الجنود المتصارعة.. تداخلت الأزمنة من جديد.. أدرك العقرب ذلك الآن.. رجال فلاحون بجلابيب فضفاضة يبحثون عن ملجأ من هول ما يحدث.. وجنود أنجليز يغزون القرية بمدرعات إنجليزية تحمل علم بريطانيا.. نساء مرتديات السواد تولول على رجالها الموتى والمحترقين.. وأُناس يحملون لافتات تأييد للرئيس الراحل جمال عبد الناصر ويهتفون بلهجة صعيدية:

--يا سادات يا سادات عبد الناصر فاتنا ومات.

تتشابك الطائرات وتُلقى قذائفها في كل مكان.. تتزايد الجثث حولهما.

--لن تنتهي اللعنة إلا بحرق حيَّها وميتها.

ترددت تلك الجملة في رأس العقرب.. برقت عيناه.. خطرت له فكرة انتحارية.. عليه بمهاجمة مقبرة تلك الفتاة حور الآن.. قد بدت معالم الطريق واضحة بعد تداخل الأزمنة مجددًا.. ربما يجد حلًا لوقف تلك اللعنة في هذه اللحظات.. حرق حور ومومياءها.. حيًّها وميتها .. ربما ذلك هو التفسير.. أن يحرق حور حية في نفس اللحظة التي يحرق فيها مومياءها.. لا بد أنه كذلك.. كيف لم يترجم معناها هكذا من قبل؟

مع أنه حتى اللحظة لم يعرف سبب لعنة حور فهي لم تمتلك تلك التعاويذ الملعونة ولم تستخدمها.. ولكن إنقاذ البشر فوق أي تفسير..

وجد مسدسًا موضوعًا أمامه.. تناوله وترك المدرعة والجندي يصرخ به:

--عد يا فندم.. عد.

قفز العقرب فوق أحد الخيول وتحرك ناحية جامع القرية العائد في تداخل الأزمان.. تجنب السيوف والقذائف والنيران وكل ما يدور في خلده أن ينقذ البشرية بأكملها.. إنه المنقذ الوحيد القادر على إيقاف هذه المهزلة.. اتخذ ذلك الطريق الذي ارشده إليه عز العرب من قبل وسط الصحراء.. خمسة أميال وسط الموت نحو المقبرة المنشودة.

ترجل عن جواده واستل سلاحه الناري وقتل بعض الحراس من جنود الهكسوس وُجدوا فوق المقبرة.. كان بابها العلوي مفتوحًا.. وقف العقرب شاهرًا مسدسه مستعدًا للنزول.. ربما الآن ينتهي كل شيء.. ربما ستكتب له وللبشر النجاة.. كتم أنفاسه هامسًا:

--فلتسامحني يا سامري.

(النبشة التاسعة)

إحتراق

حبُست الأنفاس وأُعلنت أحداث القيامة.. أنباء تتردد في كل وكالات الأنباء العالمية:

--بلغ عدد القتلى من جراء الأحداث الدامية عبر العالم أكثر من ستة وستين مليارًا على أقل تقدير.

--البشر ينقرضون.

--توقعات لشروق الشمس من مغربها بين عشية وضحاها.

--العالم يحتضر.

دان للشيطان انتصار عظيم على غريمه اللدود.. الإنسان.. التفت اللعنات حول جسد البشرية كحية سامة دبت سمها المتوغل بأقصى سرعة مقتربة لإعلان الأرض خاوية من بني البشر.

سيعود الشيطان وزمرته متجسدين في أجساد البشر ليكتمل مخطط الخديعة الكبرى.. خداع عيسى بن مريم المالك لسر الكهنوت.. والإستيلاء على مفتاح الجنة ليغزون السماء.

إنها الفرصة الأخيرة.. مدَّ العقرب قدميه ليهبط درجات تلك المقبرة وسط قذائف حربية تخطئه بالكاد.. شعر بسائل تغوص فيه قدميه بمجرد الهبوط.. نظر أسفله.. أنه بحر الدماء.. لم يتردد.. غطس كاتمًا أنفاسه باحثًا عن المومياء وحور.. وصل إلى القاع.. ضوء أحمر قاني ينبعث من فم تلك الرسمة على الحائط كما حدث سابقًا.. لا وجود للمومياء أو لأي أحد في المقبرة.. سبح إلى ذلك الممر عبر ثغر الفتاة على الحائط.. وهوى والتحدي يملؤه.. سقوط حاد وطويل حاول فيه التحكم في جسده قدر المستطاع.. وارتطم بسطح بحر الدماء الملعونة.. غطس أسفله حتى رفعته المياة من جديد.. استنشق الهواء.. فراغ قاتل يعلوه.. سبح تجاه الشاطيء سريعًا.. نفس اللافتتين..

"مُنتظر الجحيم"

"بحر الدماء الملعونة"

وصرخات متعالية لأُناس تحترق في وادي النيران.. ركض تجاهه.. إنه يعرف المكان جيدًا.. لم يغب عن ذهنه أبدًا.. وقف أعلى الوادي والناس يحترقون من دون مغيث.. ركض سريعًا إلى ذلك الممر الخشبي الحامل لطبول تدق بمفردها ناحية تلك الموسيقا التي استمع لها سابقًا.. زاد من سرعته.. وكأنه يشعر بأن شيئًا ينتظره هناك.. في ذلك البناء الزجاجي الحاوي لأبناء الشيطان وزمرته.. فتح الباب الزجاجي وأنفاسه تتسارع.. إنهم يواصلون احتفالهم السابق قارعي الكؤوس المملوءة بالخمر.. وتلك الفتيات العاريات يتراقصن وسط فحيح ضحكاتهم وألسنتهم التي تشبة آلسنة الحيات.

لم يشعر به أحد كما حدث مسبقًا.. اخترق زحامهم باحثًا عن أي شيء مختلف.. جحظت عيناه عندما وصل لمنتصف البناء.. لقد شاهدها على كرسي العرش جالسة في زهو وبهاء.. أخر من توقع وجوده في مكانٍ كهذا.. إنها فداء.. حبيبته التي فرقت بينهما اللعنات.. تنظر إليه مبتسمة وكأنها تراه.. ترجلت ناحيته ناظرة في عينيه.. وما أن وقف الإثنان في مواجهة بعضهما البعض حتى فتحت ثغرها واقتربت منه لتقبله هامسة:

--اشتقت إليك.

وأخرجت لسانها الأشبه بألسنة الحيات مثلهم.. ارتد العقرب إلي الخلف مصعوقًا من هول المفاجأة.. ضحكت فداء:

--فداء ماتت في حادث الحريق.

--أنتِ شيطانة.

قالها ببطء وكأن لسانه لا يقوى على نطق هذه الجملة الممزقة لقلبه.

--لا تتعجب.. فنحن مجرد أدوات في يد الشيطان لينفذ بها مخططه..

شياطين في أجساد البشر.

--لا أصدق.. أهذه التي عشقتها وخطفت قلبي شيطانة؟

--انتظر ولا تحكم قبل أن تعرف الحقيقة.

--أي حقيقة؟

--تعال معي.. تعال.

أمسكت يده وشدته بين الزحام.. لم يتمكن العقرب من مقاومتها فيدها حادة قوية ألجمته.. جرجرته معها نحو المجهول.. في الجانب الأخر من البناء ممر أخر.. يعيدهما من جديد فوق ممر وادي النيران.. الناس يزداد صراخها من العذاب والإحتراق.. كانت تركض وتسحبه ورائها.. وصلا إلى مجموعة لا حصر لها من البنايات الزجاجية وكأنها مدينة ضخمة فوق النيران..

كتب على مدخلها لافتة كبيرة" مدينة اللعنات"

كلٌ منها منفصلة بذاتها ويفصلهم طرق تسمح بمرور شخص واحد على الأكثر.. ملايين البنايات الزجاجية.. في كل بناية أشخاص يتصارعون.. يقتلون بعضهما البعض..

يذبحون ويمارسون الزنا والشذوذ.. لا يسمع العقرب لهم أصواتًا وكأن ذلك الزجاج يحجبها..

--تعال معي من هنا.

ترجلا وسط مدينة اللعنات والعقرب مشدوهًا لما يرى.

--هؤلاء شركاؤنا.. من سجدوا للشيطان كفرعون..

كل من قام بإستخدام التعاويذ السحرية لينال الخلود سجد وإن لم يفعل..

كل السحرة والفجار والطغاة والخاضعين لإبليس ومنهجه..

كل أتباعه وزمرته ومنفذي مخططه.. كل من قفز في خندق الشيطان

قد سجد.. بلايين البشر.. أتراهم؟

فقد العقرب القدرة على التمميز من تلك الأعداد المهولة.. ابتسمت فداء:

--جميعهم يخضعون إلى العذاب الأليم هنا في المُنتظر.. تلك المحطة بين الدنيا

والآخرة.. تلك الّتي اتخذناها سكنًا ومأوى مؤقتًا.. وأولئك الساجدين سيكون مأواهم جهنم

كما وعدهم الرب.. ولكننا سننتصر ونملك الكهنوت والجنة.. وكل من رفضوا

دروب الشيطان طمعًا في الجنة سيُطردون إلى جهنم.. سيمكث كل إنسي من بني آدم

في جهنم وبئس المصير وستصير الجنة للشياطين ينعمون.. حينها فقط سيُعلن الإنتصار.

--لن تنالوا مرادكم مهما فعلتم أيها الملاعين.. الله لن يسمح لكم.

غرقت في نوبة من الضحك الهستيري حتى تغلبت عليها وأمسكت يده من جديد:

--أريد أن أريك شيئًا.. تعال.

قادته بين البنايات حتى استقرت به بين بنايتين يرى ما في داخلهما.. همست له:

--كن شاهدًا على ذلك.

برقت عيناه.. البناية الأولى خلف الزجاج تحوى الأمير خيان وهو يذبح سامري على مرآي ومسمع من الجميلة حور المُقيدَّة على كرسي بحبال غليظة.. كُتب على جدران البناية بالدماء "ملعونٌ من يطأ بقدميه ذلك المكان.. ملعونٌ من يقترب.. ملعونٌ بلعنة تلك المومياء اللعينة" وعلى الجدار الأخر رُسمت صورتها كما رآها في المقبرة.. لحظة لا تُحتمل.. صرخ العقرب:

--سامري.

قفزت الدماء على الحائط أمامه تلوثها وسقط سامري مفارقًا الحياة..

مدت فداء يدها لتحيل وجهه ناحية البناية الأخرى..

وبها كان عز العرب ممسكًا بسكين حاد يذبح به يحيى بركات على مرآى ومسمع من الفاتنة زينة المُقيَّدة هي الأخرى..

سقط حور ويحيى صرعى في لحظات متقاربة والدماء تخضب أرجل قاتليهما.. جحظت عيني العقرب.. همست له فداء:

--في كل زمان قاتل ومقتول.. لاعن وملعون.. ترى من منهم سينتصر؟

الإجابة واحدة.. الإنسان صفر.. الشيطان واحد.

تعالت ضحكاتها وكل من عز العرب والأمير خيان يتجهان للأنثى الخاطف لها.. انقض عز العرب على جسد زينة يغتصبها وكذلك فعل خيان مع حور.. قاومت الفتاتان.. صراعان شديدان اعتلا فيه الشيطان الإثنين.. بدأ الإثنان في ضربهما بقوة وبغل من إصرارهما على منعهما.. توالت الصفعات والضربات حتى غابتا عن الوعي.. خلعا عنهما ملابسهما حتى صارتا عاريتين تمامًا.. وانقضا عليهما كحيوانين مفترسين جائعين قد وجدا للتو فريستهما بعد طول عناء وبحث.. وامتزجت الأجسدة.. وتدنس الخير بالشر في المكانين.. كان العقرب مذهولًا لما يرى.. كل شيء يحدث سريعًا أسرع من الخيال.. إن الالغاز تتكشف الواحدة تلو الأخرى.. وانتهى الرجلين من مواقعة الفتاتين.. ولكنهما اكتشفا مفارقتهما للحياة.. ماتت حور ولحقت بحبيبها وكذلك زينة لتلحق بيحيى بركات من دون حتى أن تستعيد ذاكرتها.. قد دلها قلبها على الطريق الصحيح.. ووقف الرجلين، أحمد عز العرب يُغالب سعاله القاتل وخيان المسلوب قلبه في مواجهة بعضهما البعض من خلف البنايتين وعلى أجسادهما دماء ضحاياهما وتحولا لتمثالين.. ابتسمت فداء واقتربت من العقرب تشرح له:

--أحمد عز العرب.. من اعتقدت أنه جدك الأكبر..

اتفق مع موافي زيدان ابن العمدة على قتل العمدة والمأمور..

ولأن موافي شخصًا غير سوي فقد اختار الحرق وسيلة لإخلاء القرية..

حرق جميع الأهالي بعد أن اغتصب أخت يحيى بركات على مرآى من أهلها..

إن للشر شهوة لا يسلاها من وطأه الشيطان مرة..

وانتهت مهمة عز العرب إلى هذا الحد.. تأمين بيع القرية من الوريث..

واتهام يحيى بركات بدلًا منه.. ولكنه أحبّ زينة حبًّا جمًا.. من اختارت يحيى

لتهرب معه.. كان عليه الإنتقام.. أتدري كيف عثر على زينة بركات؟

--لقد انتقلت فاقدة للذاكرة إلى الطبقة العليا في العاصمة..

عن طريق البرنس.. ومعه التقطت عدة صور في مناسبات عديدة

مع صفوة المجتمع.. ومن سوء حظها أن أحد تلك المناسبات حضرها رئيس

الوزراء المُغتال بطرس غالي.. صورة لها في صحبته وجدها عز العرب بعد

قتل الرجل في بيته.. ولم يكن من الصعب عليه الوصول إليها في نفس توقيت

القبض على يحيى بركات.. لقد جرجر الإثنين إلى فيلته في العباسية.. أتعرفها؟

--بيتي الذي ورثته عنه عائلتي.

--نعم.. وهناك.. في ذلك البدروم المليء بالورود.. نفذ جريمته تلك..

ذبح يحيى واغتصب زينة حتى الموت.. وهناك دفنهما سويًا..

ولذلك لا يوجد في السجلات شهادة وفاة بإسم يحيى بركات.

--ومومياء حور؟

التف حينها ناحية البناية الزجاجية المواجهة.. حيث وقف خيان كتمثال.. استكملت فداء كشف الألغاز:

--الأمير خيان.. خليل فرعون وكاتم أسراره..

من سجد معه للشيطان.. ونطق تلك التعاويذ السحرية الّتي تحقق

الأمنيات..

بعد موت حور أثناء اغتصابها.. ندم خيان..

لقد جهز تلك المقبرة في طيبة بعد استيلاء قواته على

جزء منها في حربه مع المصريين.. كتب على جدارها جملة اللعنة

تهديدًا لها.. لتنصاع لتنفيذ فرصتها الأخيرة للنجاة كما أمرها..

عليها أن تقتل حبيبها أمام عينيه لتنول رضاه ويعفو عنها لهروبها..

أخبرها أنه كان يعلم بنواياها وأرسل

معها ذلك السائق المصري ليتتبع خط سيرها ..

طلب منه سامري طلبًا اخيرًا عجيبًا قبل الموت.

--ما هو؟

--أن يرسمها على جدران المقبرة.. ووافق خيان.. وبدأ سامري في رسمه..

وكأنه يودعها صامتًا مُدركًا أنها النهاية.. يكتسب بعض الوقت في حضرتها..

لحظات أخيرة لم تثني خيان عن رغباته.. لم يرق قلبه لتلك النظرات المُختنقة

بسوط عشقه المُحرم لحور.. سيلوذ بها مهما كان رفضها..

وبعد أن انتهى سامري من الرسم صرخ بها:

--أقتليني لتعيشي.. أذبحيني.

ولكنها رفضت.. لم تستجب لتهديدات خيان..

وماتت بعد حبيبها بدقائق معدودة.. حاول خيان استعادتها بقراءة التعاويذ

من دون جدوى.. قد أثبتت التعاويذ فشلها في أول إختبار حقيقي وقتله الفراق..

أمر بتحنيطها وإخفاء المقبرة.

--مجرمين.

--أتقصد عز العرب وخيان؟

العشق المستحيل جرهما إلى طريق الشيطان.

--وأين المومياء إذًا؟

--المومياء! باعها رجل يدعى جون انطوان وقبض العمدة ثمنها..

وتنقلت بين الكثيرين حتى خرجت من البلاد إلى بريطانيا العظمى.

--من السذاجة إذًا أن أسئلك: هل حرق المومياء كان سينهي كل تلك اللعنات؟

--بالطبع لا يا عزيزي.. اعتقدت حور ذلك لأن معلم سامري المقتول

قد أخبرها يومًا أن تلك اللعنة المُنتظرة ستنتهي بحرق مومياء أحدهم

سيقرأ عليها التعاويذ.. ولذلك زارت يحيى بركات في كابوسه وطالبته بحرق موميائها.

ضحك العقرب كثيرًا.. قطعت ضحكاته فداء:

--للعلم بالشيء فقط.. العقرب ليس من نسل عز العرب..

--ماذا؟

--مات عز العرب بعد هذه الحادثة بشهور قليلة.

العقرب حفيد يحيى بركات.. لقد استولى عز العرب على

طفله محمد وراعاه وسجله بإسمه ليصبح وريثه الوحيد..

لقد أصر على تجريد يحيى من كل شيء حتى ابنه الناجي من الحريق.

العقرب إسمه الحقيقي "محمد عبد الله محمد يحيى عبد النور بركات"

لم تؤثر فيه تلك المفاجأة وسط ما يستمع إليه من مفاجأت.. اقترب منها:

--وماذا تعني حرق حيًّها وميتها؟

نظرت في عينيه كثيرًا قبل أن تسئله:

--الم تتذكر بعد؟

--أتذكر ماذا؟

--اقدح زناد فكرك.

--لا أتذكر شيئًا. ماذا تقصدين؟

--شخصيتك الحقيقية.

--أنا العقرب محمد بن عبد الله.

--كلا.. العقرب مات مع حبيبته فداء في حريق بيتها.

--محال.

--أنت لست العقرب.

--لا تخادعيني.. لا تخبريني بأنني من أبناء الشيطان.

اقتربت منه هامسة مشفقة عليه مغرورقة عينيها بالدموع لتفجر في وجهه الكارثة الكبرى بالنسبة إليه:

--لست من أبناء الشيطان.. بل أنت الشيطان ذاته.

صفعة قوية على وجهة أصابته بالهذيان.. صوتها يتردد حوله ويمتزج بأصوات الملايين من البشر داخل تلك البنايات:

--أقسّم بإبليس المُبجَّل أن أكون عبدًا مخلصًا.. وأن اتبع الطاغوت دينًا وحكمًا، وأصير من الساجدين.

الشيطان.. الطاغوت.. المُنتّظر

--بل أنت الشيطان ذاته.

وكأن المكان يتزلزل من حوله.. شعر بالإختناق الشديد وكأن رئتيه تبحث عن الهواء بصعوبة بالغة.. صرخ فيها:

--ما هذا الهراء الذي تقولين؟

--انظر حولك.. هذه امبراطوريتك التي بنيتها..

هذا عملك الذي نسعى جميعًا إلى تنفيذه طبقًا لخطتك.

--اصمتى.. اصمتوا جميعًا.

--أقسّم بإبليس المُبجَّل أن أكون عبدًا مخلصًا.. وأن اتبع الطاغوت دينًا وحكمًا، وأصير من الساجدين.

الشيطان.. الطاغوت.. المُنتّظر

--لن اصمت بعد الآن.. لا بد أن تستعيد قوتك من جديد.

--اصمتى.

--لن اصمت.. لقد سئمت ضعفك ورغبتك في الهروب.

--اصمتى.

--لن اصمت.

كان العقرب يتحول رويدًا رويدًا لأشكالهم الإبليسية.. صرخ فيها لتسكت من دون جدوى..

أمسك أذنيه لكي لا يسمعهم.. ذلك القسَّم اللعين الّذي طالما استمع إليه من أتباع كنيسة الشيطان قبل بداية تلك الرحلة اللعينة.. ولكنهم كانوا يعلون بأصوتهم ليصل إليه رغمًا عنه..

نزعت فداء يديه وتحدثت إليه في شفقة:

--لا رجعة في طريق أنت بادئه.. لا غفران ستناله..

لن يغفر لك مهما فعلت.

جلس العقرب على الأرض بين البنايات حزينًا يغالب دموعه هامسًا:

--اصمتي.

--أنا حبيبتك ورفيقة دربك منذ القدم.. منذ أن عصيت الله واتخذت

الكبرياء سبيلًا ومنهجًا.. لقد لازمتك ووافقتك على كل ما تريد..

وافقتك على إنتقامك من بني الإنسان..

على خطتك البديلة للوصول إلى سر الكهنوت ومفتاح الجنة..

حتى مرضك هذا العجيب أخفيت أمره عن أبناءنا وزمرتنا.. أُظهرك تارة وأُخفيك تارة أخرى .

--مرضي!

--نعم.. لقد أخبرتني ذات مرة أن همومك بلغت حد العناء..

وأنك تفكر كثيرًا في التوبة.. تفكر في هدم كل ما وصلنا إليه في دربنا الطويل..

ولكي تتوب عليك بإصلاح ما أفسدته يدك.. حاولت كثيرًا الإصلاح من دون فائدة..

اتباعك يرفضون التوبة.. يمارسون الشر الذي زرعته فيهم بإمتياز..

ساءت حالتك كثيرًا وبدأت تعاني النسيان وفقدان مؤقت للذاكرة يزداد من حين لأخر..

وكأن نفسك تفر من حقيقتها..

وحاولت مرارًا وتكرارًا في إصلاح الشرور والخطايا بأن تحل بنفسك في أجساد البشر وفشلت.. كنتَ تتلبس أشخاصًا ماتوا وتيدهم إلى الحياة قد يؤثرون في العالم بآرائهم..

ذلك الروائي اليهودي يعقوب إدريس.. تجسدت في جسده وآلفت رواية النبَّاش

لتتحدث عن لعنة يمحوها شخص يصلح ذنوب سابقيه.. جرس إنذار للبشر..

ولكنهم لم يستمعوا إليه وتداخلت الأزمنة كما خططت..

تجسدت بعدها في شخصية فريد مهران وجمعت حولك اتباعًا من كل مكان في العالم..

ملايين السُجاد للشيطان صراحةً.. وفي لحظة أخبرتهم أن إبليسًا كاذب وأن ما يعدهم به لن يتحقق ومع ذلك لم يتوبوا.. احترق الكثيرون في لحظة بيديك على مرآى ومسمع العالم أجمع ومع ذلك استمروا في طغيانهم وكفرهم.. البشر هم أصل اللعنة يا عزيزي..

إنهم يستحقون الجحيم عن جدارة.. يصرون على إتيان الذنوب وكأنها

مسابقة يودّون ربح المركز الأول فيها.. أتتخيل أن الشيطان بنفسه

يريد نصحهم بالتوبة؟ والآن أنت تتجسد في شخصية العقرب..

سلكت رحلة من الألغاز لا لشيء غير شعورك بالحنين إلى تلك الفترة التي تسبق سجود فرعون إليك.. تلك الفترة التي كان من الجائز فيها قبول توبتك كما أخبرتني فيما سبق.

--لن ننجو.. لن ننجو أبدًا.

--كلا سننتصر.

--سنُسحق في النهاية.

--سنغزو الجنة.

--للجنة رب يحميها.

--عدّ إلى رشدك يا حبيبي.

--اللعنة علينا جميعًا.

مدت راحتيها وطوقت وجهه في حبٍّ وهمست له والدموع تتساقط من عينيها:

-- أتريد معرفة معنى حرق حيَّها وميتها؟ إنها الطريقة الوحيدة لإنتهاء كل شيء.

نظر لها الشيطان "العقرب" في شغف وترقب:

--حيَّها المقصود بها كل من أصابتهم لعنتك وهم على قيد الحياة..

وميتها كل من ماتوا على لعنتك.

أصابه خيبة أمل بعدما فسرت له تلك الجملة.. ولكنها باغتته بالقاضية:

--أو يحترق الشيطان الأول.. أنت.. إبليس.

برقت عيناه وتعالت أصوات المعذبين حرقًا من حولهما وأولئك البلايين من البشر الخطائين بالقسم عاليًا:

-- أقسّم بإبليس المُبجَّل أن أكون عبدًا مخلصًا.. وأن اتبع الطاغوت دينًا وحكمًا، وأصير من الساجدين.

الشيطان.. الطاغوت.. المُنتّظر

وكل ما يدور في باله الآن.. هل يحرق نفسه تكفيرا عن خطاياه؟

وهل يستطيع الشيطان فعل ذلك؟ بعد أن باتت التوبة أمنية مستحيلة.

(النبشة العاشرة)

(بعد مائة عام)

استعادت الأرض رونقها من جديد بعد قرن من الزمان انتشرت فيه الأوبئة والأساطير.. حصد الموت قرابة السبعين مليارا من الكرة الارضية ولم يتبق غير عشرة ملايين على مستوى العالم أغلبهم من الحكومات الّتي لجئت إلى المخابيء الأرضية.. احترقت أمهات الكتب وخفى التاريخ عن الناجين وبقت الأساطير حول حرب شنعاء تداخلت فيها الأزمنة ومات فيها أغلب البشر واندثرت الأديان.. تناقلوا قصة رجل يدعى العقرب عثروا عليه مذبوحًا في أحد مخابيء الحكومة المصرية وكان ذلك اعلانًا بتوقف الحروب والأزمات.. يقولون أنه كان مُنقذهم ومُخلِّصهم من الموت ولذلك صنعوا له تمثالًا كبيرًا ووضعوه في ميدان التحرير.. وسرعان ما انتشرت قصته في العالم أجمع حتى اصبحت مصر مزارًا سياحيًا رئيسيًا للجميع لزيارة ذلك التمثال وقاربوا على تقديسه.. وأُعيد إعمار البلاد رويدًا رويدًا وعادت التكنولوجيا تغزو العالم من جديد.

انتشر العلم وخرج الناس من بوتقة الخوف والذعرالّذي طالما عايشوه في تلك الأزمة.. وتوالد الناس وتناسلوا في هدوء وسلام.. واختفت الحروب والنزاعات وبات العالم مدينة واحدة يجمعها الحب والإخاء.. أكبرهم يحكي عن أديانٍ سماوية لا يفقهها جيلهم الحالي.. باتت أبعد ما يكون عن تقدمهم العلمي.. مجرد أساطير قديمة.

وفي مكان بعيد في صعيد مصر.. نبش أحدهم قبرًا قديمًا عثر عليه صدفة.. وقف بعض الأهالي يساعدونه ممسكين شعلات تشق ظلمة المكان.. هبطوا درجات إلى الاسفل..

مقبرة فارغة.. لا شيء في المكان سوى كتاب قديم أوراقه صفراء يغطية الثرى..

مسكه أحدهم وأزال ترابه ليقرأ ما كتب على غلافه:

--الطاغوت"دين الشيطان".

اهتزت أرض المقبرة تحت ارجلهم لتُعلن فصل جديد من اللعنات.

-تمت-

٧ ابريل ٢٠٢٠

د.عمرو البدالي

أعمال أخرى للمؤلف:

رواية عفريت العلبة

رواية بربونيا

رواية بكالوريوس إعدام

رواية النبّاش ١

رواية قلقاس بن فرناس

رواية فيرماخت

للتواصل مع الكاتب:

https://www.facebook.com/dr.amrelbadaly

أو

/https://www.facebook.com/amrelbadaly20